

## أضواء على التصوّف المغربيّ

من خلال آثار الشيخ عبد الله الغزوانيّ

♦ د. بول نويّا

جمع ومراجعة وتقديم : خالد محمّد عبده

المقدمة:

### رهبان المعرفة الصوفيّة

لم يكن الصوفيّة حاملين أبداً، وإذا كان هناك كلمة تصف حقيقتهم وهم يحبّون أن توصف بها مجاهداتهم الروحيّة فهي «التحقق» المضاد للحلم، إنّ الصوفيّة واعون بأنهم يمثلون في الإسلام الفكر الواقعيّ الوحيد الحقّ، مادام هذا الفكر جهداً مشروعاً للإفادة من تجربة الوجود المسكون بوجود الحقّ، الإله الحقّ هو أيضاً الواقع الحقيقيّ، إنّ مفهوم «الحياة» عند الصوفيّة يستحيل من المتداول ليصبح «الحيّ» هو الذي يحيا بالحقّ.

[بول نويّا، التأويل القرآنيّ واللغة الصوفيّة]

طالعت أعمال أحد الآباء اليسوعيّين وحاولت أن أتعرّف على جهوده في دراسة التصوّف الإسلاميّ وأدهشتني رحلته القصيرة التي أثمرت العديد من الأعمال دراسة وترجمة وتحقيقاً فجمع بين سبل الإبداع في تقديم التراث الصوفيّ، فمن بغداد إلى باريس ومن القاهرة إلى فاس ومن بيروت إلى تركيا وإيران حاول الأب بول نويّا أن يجمع العديد من التفاسير القرآنيّة الصوفيّة ليستخلص منها خيطاً ناظماً للغة جديدة خلقها المتصوّفة خلقاً خاصاً فريداً وتميّزوا بها، أفادوا فيها من فنون الأدب والحديث وفقه اللغة وقصص السابقين، وصاغوا ذلك كلّ صياغة دقيقة يستعصي فهم نظامها وتعرّف أصولها على من كان بعيداً عن هذا التراث روحاً وتدبراً

## وحياة.

بدأ راهب العلم رحلته بمتابعة مرويات الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتفقد مواطن الإبداع عند تلاميذ هذا الجيل، واستخلص منها ما صلح أن يكون زاداً له في اكتشاف أصول اللغة الصوفية، وفي سبيل ذلك كان عليه أن يقرأ ما نسب إلى رسول الإسلام من أحاديث وأن يسجل رؤيته لما قرأ وتدبر، فكان من ثمار القراءة مقالات عدّة نُشرت باللغة الفرنسية (لم يترجم شيء منها إلى العربية حتى الآن) وتتبع من كتب عن (النقطة) و(الحرف) و(الطاسين) و(الحكمة) و(الموقف) وحقّق أعمالهم وترجم جزءاً وفيراً منها إلى اللغة الفرنسية.

تذكّرت هذا الراهب اليوم وأنا أطلع عملاً من أعمال راهب المعرفة جرهارد بورينغ الذي وصف الإسلام في حوار له قبل ثلاثين عاماً أو أكثر بأنه «دين المستقبل»! وإيماناً منه بأهمية تراث الإسلام ساهم جرهارد بورينغ في تأسيس العديد من أقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية وبذل كثيراً من الجهود في تأسيس جيل من الباحثين حتى استحق وصف أستاذ الأساتذة، وتشهد أعماله العلمية على ما استحقّه من أوصاف ومكانة.

إنّ تتبّع المسيرة العلمية لهذين الراهبين كفيلاً بأن يعيد صنع حياة الباحث في الإسلاميات من جديد، ويقفنا على مدى تقصيرنا فيما ورثناه من معارف فضلاً عن تشويهنها لها واستغلالنا لتراثنا الإسلامي في معارك الحياة الزائفة.

في هذه الكلمة القصيرة أحاول التعريف بالأب بول نويا وبجهوده العلمية.

الأب بول نويا، أستاذ اللغة العربية في معهد الدراسات العليا (السوربون)، وأستاذ الحضارة

الإسلامية في جامعة «القديس يوسف» في بيروت وعضو المركز الوطني للأبحاث العلمية بباريس. وُلد الأب بول نويا في منطقة العمادية في جبال كردستان العراقية في يناير عام ١٩٢٥، ثمّ انضمّ إلى اليسوعيين في لبنان عام ١٩٤٨، وبعدها أكمل دراساته في الإسلاميات تحت إشراف المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون المعروف باهتمامه بالتصوّف الإسلامي.

في عام ١٩٥٥، نُصّب كاهناً، وفي العام الثالث من تنصيبه كاهناً وتحديداً في عام ١٩٥٧، كلّف بمهمة القيام بزيارة رسولية للأخوية الكلدانية التابعة للقديس هورميسداس Hormisdas وتنظيم تدريب للشباب المتدينين، فلبث في بلده الأم، بالقرب من الموصل أربع سنوات (١٩٥٨-١٩٦٢). وفي عام ١٩٧٠ أنجز أطروحته للدكتوراه في جامعة السوربون، ثمّ كان يقسّم وقته بين بيروت وباريس، يُشرف على الأطاريح ويُدرّس في جامعة القديس يوسف، والمعهد العمليّ للدروس العليا في باريس، متبوّناً الكرسيّ الذي سبقه عليه أستاذه وزميله لويس ماسينيون، إلا أنّ كثرة أعماله أنهكت قواه، وعاجلته المنية في باريس فتوفّي بسكتة قلبية وهو لما يزل في الخامسة والخمسين من عمره، يوم الخامس والعشرين من شهر فبراير ١٩٨٠.

اضطلع الأب نويا بمهمة تدريس الإسلاميات في معهد الآداب الشرقية ببيروت، والإشراف على سلسلة «بحوث ودراسات» التي تصدر حتى يومنا هذا عن دار المشرق اليسوعية، وأشرف على باحثين كثير، نذكر من بينهم اثنين من مشاهير عصرنا، الأول: أعجبه من الصوفية إرادة الكشف المستمر والنضال ضد العقلانية ورفض الخضوع بشكل مفروض على أنه شكل نهائي، وهو الشاعر علي

أحمد سعيد الشهير بأدونيس. والثانية، أستاذة الفلسفة والعلوم الصوفيّة بالجامعة اليسوعيّة سعاد الحكيم التي ارتبط اسمها بالشيخ الأكبر ابن عربيّ وكُرِّمت من أجل أعمالها ودراساتها عنه شرقاً وغرباً وقد رأت من أستاذها صدقاً في فهم التجربة الصوفية ومحبة للتصوّف، فلم يكن مهووساً كغيره من المستشرقين بالبحث عن مصدرٍ وأثر خارجي للتصوّف، بل راح يتلمّس أصول المذهب الصوفيّ في القرآن والسنة النبوية، ويحاول تتبّع التفاسير ليعيد اكتشاف اللغة الصوفيّة. عرّف الأب بول نويّا عبر دراساته للنصوص الصوفيّة وتحقيقاته لتفاسيرهم أن بداية التجربة الصوفيّة انبعتت من القرآن، فالذاكرة الروحيّة الإسلاميّة تغذّت بالنصّ القرآنيّ، ففي بدء التجربة يعتمد الصوفيُّ على القرآن، ولكن لغته تتغيّر وتتلوّن بلون تجربته لتؤول معنى النصّ وتستنبط معنى قد يخالف المفهوم السابق للنصّ قبل التجربة، ويعني ذلك أن الصوفيّ يرجع في نهاية التجربة إلى بدايتها أي إلى القرآن. في البدء الصوفي يرى صورته كما يعكسها القرآن، ثمّ يصبح مرآة تنعكس فيها معاني القرآن العميقة. من هنا راح الأب نويّا يتتبع تفاسير الصوفيّة للقرآن بداية من الإمام جعفر الصادق وابن عطاء الأدمي والنوريّ ويبحث في لغة النّفريّ وتجربة روزبهان البقليّ ويردّد حكم ابن عطاء الله السكندري حتى استطاع في وقت قصير من حياته أن يسبر غور هذه التجارب ويؤلّف عنها الكتب بالعربيّة والفرنسيّة، ويعرّف بأعلام التصوّف في دوائر المعارف الإسلاميّة، ليصبح إنتاجه مصححاً ومطوّراً للدرس الاستشراقيّ للتصوّف الذي اعتمد أحكاماً مسبقة ظل محافظاً عليها، سواء كان ذلك بدافع التعصب أو لقلّة المصادر المخطوطة التي

لم تكن قد اكتشفت بعد.

### بحوثه ومؤلفاته

- حقّق الأب بول نويّا ونشر كثيراً من النصوص الصوفيّة، نذكر منها:
- ١- تفسير القرآن للإمام جعفر الصادق (بالعربيّة).
  - ٢- شخصيّة وأعمال ابن عبّاد الرنديّ (بالفرنسيّة).
  - ٣- الرسائل الصغرى لابن عبّاد الرنديّ (بالعربيّة).
  - ٤- كتاب مقامات القلوب لأبي الحسن النوريّ (بالعربيّة).
  - ٥- الطواسين للحلاج (بالعربيّة).
  - ٦- كشف الأسرار لروزبهان البقليّ (بالعربيّة).
  - ٧- التفسير القرآنيّ ونشوء اللغة الصوفيّة (بالفرنسيّة).
  - ٨- نصوص صوفيّة غير منشورة (بالعربيّة).
  - ٩- الحكم العطائيّة لابن عطاء الله السكندريّ (دراسة وترجمة إلى الفرنسيّة).

### لمحة عن أعماله

ويمكن هنا أن نقدّم لمحة عن مؤلفات الأب بول نويّا ودراساته المنشورة: تفسير القرآن للإمام جعفر الصادق (بالعربيّة) كتب الأب نويّا عن مآثورات جعفر الصادق في التفسير الصوفيّ دراسة بالفرنسيّة عام ١٩٦٩، وقد اجتهد في تتبّع التفسير القرآنيّ بداية من مقاتل بن سليمان حتى الإمام جعفر الصادق، واعتمد في إخراج نصّ الصادق «رضي الله عنه» على مخطوطة «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلميّ، واشتهر عمله في الدوائر العلميّة شرقاً وغرباً، وأعيد طبع هذا التفسير في إيران والعراق، وبعد عشرة أعوام من

ظهور هذا التفسير اجتهد علي زيعور في تقديم صورة تامة من تفسير الصادق والكتابة عن حقائق التفسير القرآني مطورًا هذه الكتابة عبر ثلاث نشرات لمرويات الإمام الصادق في التفسير الصوفي.

في عام ١٩٧٣ قدّم الأب نويا نصوصًا صوفيّة غير منشورة من قبل وقرّ فيها جملة من تفسير ابن عطاء الأدمي والنوري والتستري، وأعيد نشر هذه الأعمال في إيران في «مجموعه آثار أبو عبد الرحمن سلمى: بختهايي از حقائق التفسير ورسائل ديگر» بعناية نصر الله پورجوادي. وقد قارب الأب نويا تجربة هؤلاء مركزًا على ما أضفوه في تأويلاتهم للقرآن، وعلى وضعيّة اللغة والتجربة في هذا التأويل.

في العام نفسه نشر الأب نويا مقدمة تفسير القرآن لعلاء الدولة السمنانيّ، وهو عالم صوفيّ كتب باللغتين العربيّة والفارسيّة، وله تصنيفٌ شبيهٌ بالمنقذ من الضلال والكاشف عن الأحوال، شرح فيها أحواله الروحيّة وكيف سار في طريق التصوّف، وإن كانت كتابات الأب نويا فاتحة وتمهيديًا للاهتمام العربيّ بأعلام التصوّف، إلا أن شخصيّة السمنانيّ لم تنل حظّها بعد في الدرس العربيّ.

اعتنى الأب نويا بتفسير أبي الحسن الحراليّ المراكشي للقرآن، ونشر رسالته مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، وقد أعاد نشر هذه الرسالة محمادي الخياطي في المغرب في ضمن كتاب «تراث أبي الحسن الحراليّ في التفسير» كما نشر رسالة التوشية والتوفية، لفت الأب نويا عناية الدارسين إلى هذه الشخصية الصوفيّة العريقة بمقالاته الثلاث التي كتبها عن مؤلفات الحراليّ، وثمة مقالة مهمة أنجزها نُشرت بعد وفاته عن

اللغة التصويريّة والصور الإنجيليّة والتوراتيّة في تفسير القرآن.

لا تنفصل قراءة الأب نويا للنفرّي عن الإشكال الذي تصدّى لمقاربتة في كتابه تفسير القرآن واللغة الصوفية، فقراءته لم تكن إلا حلقة في مسار طويل، انطلق فيها من رصد البذور الأولى التي استنبتها الصوفيّة في إرساء تأويل خاص للقرآن، ومن هنا أفرد الأب نويا للنفرّي في كتابه سالف الذكر ستين صفحة باللغة الفرنسيّة بعد أن حقّق للنفرّي أعماله المجهولة، التي تلت نشرة آرثر آربري للمواقف والمخاطبات في مصر، فقدّم لنا نصوصًا جديدة من مواقف النفرّي لتكتمل بها أعماله، وقد كان لتحقيق الأب نويا لأعمال النفرّي، والكتابة عنه في المجلات الفرنسيّة والعربيّة أثر مباشر في تطوّر الكتابة العربيّة عن النفرّي؛ بدأ ذلك بعد نشرته بعام للمواقف المجهولة، فقد كتب أدونيس مقالًا حول «تأسيس الكتابة الجديدة» ونشرها في بيروت عام ١٩٧١ ونثر فيها قدرًا كبيرًا من «مواقف النفرّي» ليعرفه الجمهور بعد غربة طويلة.

ولإيمان الأب نويا بأنّ أعمال صوفيّة كثيرين غير الحلاج الذي حقّق طواسينه، قد طوّرت المعجم الصوفيّ واللغة الصوفيّة، فانشغل بدراسة كتاب معرفة الأسرار للحكيم الترمذي، وهذا الكتاب في جملته عبارة عن خواطر أراد الحكيم الترمذيّ أن يحدد من خلالها معاني الكلمات التي تدور على ألسنة الصوفيّة؛ وتناولها مشايخ الصوفيّة بالشرح والبسط، من أمثال: الشوق والصبر والعبرة والقبض والبسط والحلم ولعلم والمعرفة والتوكل وغيرها من اصطلاحات المتصوّفة، فقد حشد الترمذيّ في هذا الكتاب حوالي مائتين وعشرين مصطلحًا عرض لمعاني أغلبها في اختصارٍ أشبه

بالتعريفات الجامعة المانعة.

### التأويل القرآني واللغة الصوفية

قدّم الأب نويًا لدراسته عن التأويل القرآني واللغة الصوفية بمقدمة ناقش فيها استبعاد الإسلام النصوي للتفاسير الصوفية، فقد تمّ إقصاء التفسير الصوفي رغم ثرائه وجماليته، لكونه بدعة وهرطقة لا أصل له في الإسلام! ومن هنا استبعد بعض المستشرقين من أمثال بلاشير هذا اللون التأويلي للقرآن عندما أراد أن يدرس التفاسير واللغة القرآنية. حاول الأب نويًا أن يثبت خطأ هذه الفكرة، وقد نجح بالفعل من خلال دراسته النظرية للقرآن واللغة الصوفية، ومن خلال تحقيقاته للنصوص المؤسسة للتفسير الصوفي. ورغم عمره القصير الذي لم يمهلته القدر لإتمام مشروعه عن تفاسير الصوفية للقرآن في مصر والمغرب وبغداد والشام وإيران إلا أنه قدّم إنتاجًا ثريًا عبّد الطريق لكثيرين من بعده، بل إن بعضهم أغار على جهوده ونسبها لنفسه!

من اللافت للنظر في كتاب الأب نويًا تناوله لتفسير مقاتل بن سليمان الشخصية التي يمكن اعتبارها بحق من الشخصيات القلقة في علم التفسير وعلم الحديث، فهناك مقاتلان! مقاتل الذي لا يعُدُّ به، ومقاتل الذي يُحتفى بأقواله وله مكانة بارزة في التفاسير الإسلامية وفي كتب علوم القرآن، بحيث لا يخلو كتاب من كتب الوجوه والنظائر من الاعتماد على مقاتل، وله حضور ظاهر عند الصوفية الكبار كالقشيري والخركوشي والغزالي وغيرهم.

لم يلتفت الدارسون العرب إلى أهمية تفسير مقاتل ومكانته عند الصوفية كما فعل الأب نويًا، يتأكد لنا ذلك من خلال مطالعتنا لبحث المغفور له الأستاذ عبد الله شحاته عن مقاتل فلم ترد فيه إشارة إلى أثر مقاتل على الكتابات الصوفية،

وكذلك لم ينتبه محقق كتاب الحكيم الترمذي تحصيل نظائر القرآن إلى حضور مدونة مقاتل البلخي ولا لكون كتاب الترمذي في صلبه وبنيته مجموعة من التعليقات على نصّ مقاتل، التفت إلى ذلك الأستاذ محمد الشاذلي النيفر عام ١٩٧٧ وكتب مقالاً عن هذه الفكرة، راجياً أن يحصل على نصّ كامل لكتاب الترمذي. لكن النيفر لم يشر إلى جهود الأب نويًا في هذا السياق، ومما يحمده للأستاذة هند شلبي رحمها الله أنها أحالت أكثر من مرة عند تحقيقها لكتاب التصاريف ليحيى بن سلام على دراسة الأب نويًا مشيدة بجهوده، ومخالفة إياه في جملة من المواضيع، وقد قدّمت نقدًا موضوعيًا بنّاءً، ولم يغب عنها أهمية البعد الصوفي في دراسة تفاسير القرآن، يتجلى ذلك بوضوح في دراستها عن الفخر الرازي وتفسيره، ودراستها عن القراءات القرآنية في إفريقيا.

### طواسين الحلاج

اعتمد ماسينيون في نشره للطواسين على مخطوطة واحدة غير كاملة ومتأخرة ومنسوخة بخط مغربي رديء جداً، مما جعله يخطئ في قراءة كثير من الكلمات لرداءة المخطوطة، وفي عام ١٩٦٧ اكتشف الأب نويًا مخطوطة جديدة للطواسين هي نسخة المتحف البريطاني، وهي مخطوطة نسخت بخط فارسي. فكان أن عقد مقارنة عاجلة ما بين مخطوطة ماسينيون والمخطوطة الجديدة ليتبين الفرق بينهما. ثم حصل لاحقاً على مخطوطتين جديدتين إحداهما في مكتبة ولي الدين في استنبول، والثانية في طهران. وبواسطة جميع تلك المخطوطات أمكنه التوصل إلى نصّ كامل للطواسين. ويجب القول أنّ أهمية الطواسين لا تتأتى عن كونه كتاباً فريداً بحد ذاته؛ لأن اكتشاف رسائل الجنيد والخراز والحكيم

الترمذيّ بينت أنّه قبل الحلاج كان هناك «تراث صوفيّ فائق الأهمية» أهمية الطواسين تأتي من كونه الكتاب الوحيد الذي وصلنا من الحلاج، ولا يعتقد الأب نويًا أنّه كان من أهم كتبه.

الحلاج شخصية صوفيّة فذة، وهذا ما بينه ماسينيون بطريقة متفردة إلا أنّ ماسينيون قد أعطى الحلاج من الناحية الفكرية أهمية تجاوزت الأهمية الفعلية لآثار الحلاج. وسبب ذلك أنه لم تتح له فرصة الاطلاع على رسائل الخراز وعلى قسم كبير من كتابات الحكيم الترمذيّ التي سبقت كتابات الحلاج. إضافة إلى ذلك فإنّ ماسينيون قدّم قراءة للتاريخ الصوفيّ غير صحيحة إذ جعل من القرون الثلاثة الأولى العصر الذهبيّ للتصوّف وادعى أنّه بعد الحلاج بدأ تدهور التصوّف بينما نعلم أنّه في القرنين السادس والسابع للهجرة أنتج التصوّف تراثًا لا يقلّ أهمية عما سبقه. ومن هنا صوّب هنري كوربان خطأ ماسينيون عندما بيّن أهمية السهرورديّ وابن عربيّ وهما من الجيل اللاحق للحلاج.

### كونيّة التجربة الصوفيّة الإسلاميّة

رأى الأب نويًا أنّ التجربة الصوفيّة الإسلاميّة وإن اتصفت بالطابع الدينيّ، وامتازت به إلا أنها تمتاز بطبيعة الفكر الإنسانيّ عامة، ومن هنا أكّد كونها تجربة إنسانيّة كونيّة. محاولاً العثور على الوحدة المشتركة، في كلتا التجربتين الصوفيّتين الإسلاميّة والمسيحيّة، وحدة التعبير عن التطلّع الإنسانيّ للمطلق أو لله، «فالتجربة الصوفيّة عمومًا هي تجربة في المطلق، والنقطة المهمة في كلّ تجربة صوفيّة هي إظهارها للفكر الإنسانيّ بطبيعته كنزعة نحو المطلق أو كعطش إلى الله، فهي إذن إنسانيّة فبينما يظلّ علم الكلام مثلًا محدودًا

بطبيعته ككلام وبالمشكلات التي يطرحها، نجد أنّ التصوّف يبدأ كتجربة تولد فيما بعد مشكلاتها الفلسفيّة والعلميّة، في التصوّف يختبر الصوفيّ صفات مخالفة إن الإنسان ينقلب إلى إلهيّ وبالعكس، وهذا يضاد علم الكلام القائل بأنّ الإنسان إنسان ولا غير ذلك، إنّ التجربة الصوفيّة تمثّل عمومًا دخول المطلق في حيّز الإنسان.

رأى الأب نويًا أنّ التجربة الصوفيّة تسبق التعبير كقضية مما يعني أنّه من غير الممكن أن تتولد أي تجربة دونما لغة، فحيث لا لغة لا تجربة، وكل تجربة إنما تأتي إلى الوجود من خلال لغة، ولهذا «فإنّ بداية التجربة هي القرآن. لأنّ الذاكرة الروحية الإسلاميّة تتغذى بالنصّ القرآنيّ، ففي بدء التجربة الصوفيّة هناك الكلام القرآنيّ، ولكنّ اللغة تتغير فيما بعد بحيث تؤوّل التجربة معنى النصّ وتستنبط معنى قد يخالف المفهوم السابق للنصّ قبل التجربة، ويعني ذلك أنّ الصوفيّ يرجع في نهاية التجربة إلى بدايتها، أي إلى القرآن كما أدرك بعد التجربة، فثمّة صدى إذن بين التجربة والقرآن، التجربة تتفاعل والقرآن فيتولّد عنهما صدى جديد وهذا معنى قوليّ إنّ تلك الصفة هي جدلية، في البدء يرى الصوفيّ صورته كما يعكسها القرآن، ثمّ يصبح مرآة تنعكس فيها معاني القرآن العميقة.

منذ البداية شعر الصوفيّة أنّهم في طريقهم إلى خلق لغة جديدة، وأنّ ثمّة صعوبة في فهم هذه اللغة. لهذا نرى أنّه منذ عهد الحكيم الترمذيّ أي القرن الثالث للهجرة، وهم يحاولون وضع ما يمكن نعتة بثبت المفردات الصوفيّة المتداولة وشرحها كي يسهلوا قراءة مؤلفاتهم، ومهدوا لذلك بوضع اصطلاحات وتعريفات.

تناط صعوبة اللغة الصوفيّة بطبيعة التجربة،

التفسير القرآني واللغة الصوفية *sulmanes* : محاولة جديدة في المعجم التقني للصوفية المسلمين. Dar el-Mashreq. Beyrouth.

Paul, Nwyia. 1972, *Ibn ATā Allāh et la naissance de la confrérie šādilite* ابن عطا الله ونشأة الطريقة الشاذلية. Dar el-Mashreq. Beyrouth.

بول، نوييا. ١٩٧٢. نصوص صوفية غير منشورة لشقيق البلخي - ابن عطاء الأدمي - النفري، حققها وقدم لها بول نوييا اليسوعي. دار المشرق، بيروت.

بولس، نوييا. ٢٠١٣، صوت المسيح، دار المشرق. بيروت.

#### Articles :

Paul, Nwyia. 1956 . Note sur quelques fragments inédits de la correspondance d'Ibn al-Arif avec Ibn Barraĵān ملاحظات على بعض المقاطع غير المنشورة لمراسلات ابن العارف مع ابن براجان. Hespéris : Archives berbères et bulletin de l'institut des hautes études marocaines, Paris : Librairie coloniale et orientaliste Émile Larose. p. 217-221.

بول، نوييا. ١٩٥٧. تحقيق كتاب: الرسائل الصغرى للشيخ لابن عباد الرندي، مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية. بيروت العدد ٥١/١ الصفحات: ١-١٠١.

Paul, Nwyia. 1966. Nouveaux fragments inédits de allāj. مقاطع جديدة من *Extrait de : Mélanges de l'université saint-Joseph, tome XLII,*

إذ إنها تجربة فردية لا يمكن فهمها بحذافيرها إلا إذا أعيد عيشها، كما أنها تضع الصوفي، من جانب آخر، في عدم إمكانية التعبير عنها، فنحن حين نصادف نصوصاً هي في ظاهرها غير منطقية، فهذا يدل على أن الصوفي حاول أن يعبر عما لا يقال، فقال ما استطاع وكما استطاع، وتبين النصوص غالباً أنه لم يتمكن من التعبير، بل وقع في نوع من بلبلة اللغة، إما لأنه لم يتسلط على تجربته، وإما لأن اللغة لم تساعده، إذ إن التعبير الفكري يجبر اللغة على أن تخضع لتحديد منطقي.

كان الأب نوييا في بدء بحثه في حيرة في شأن مصادر التفسير القرآني الأولى، إلا أنه مع حسن توجهه في البحث عن جذور التصوف في الأصول الإسلامية وعلى الخصوص منها تفاسير القرآن، منتقداً المستشرقين الذين تهافتوا على البحث عن التأثيرات غير الإسلامية في التصوف بحثاً لا طائل منه انتهى الأب نوييا إلى أن التصوف في جوهره ظاهرة إسلامية وأن القرآن هو المصدر الأول (وإن لم يكن الوحيد) الذي استقى منه الصوفية غذاءهم الروحي.

#### بيبلوغرافيا

##### Livres :

Paul, Nwyia. 1961. *Ibn, Abbād de Ronda (1332-1390) : un mystique prédicateur à la Qarawīyīn de Fès* ابن عباد الرندي : خطيب *Les lettres orientales.* Beyrouth.

Paul, Nwyia. 1970. *Exégèse coranique et langage mystique : nouvel essai sur le lexique technique des mystiques mu-*

Beyrouth : Imprimerie catholique. vol1.  
Pp 186-237.

–Paul, Nwyia. 1973-1976. Al-akīm al –Tirmi  
ī et le lā ilāha illa Allāhu الحكيم الترمذي  
ولا إله إلا الله Mélanges de l,Université  
Saint-Joseph. Beyrouth Volume 2. pag-  
es 741-765 – Paul, Nwyia. 1974. Actu-  
alité du concept de religion chez unayn  
Ibn Is āq حقيقة مفهوم الدين عند حنين بن  
إسحق. Arabica : Revue d'études arabes  
et islamiques = Journal of Arabic and  
Islamic studies. Centre national de la  
recherche scientifique de France. Vol  
21. Pages 229-330.

–Paul, Nwyia. 1974. Makzūn al-Sinjārī  
مخزون السنجاري، poète mystique alaouite  
شاعر الصوفي العلوي Studia islamica / Di-  
recteurs / editors A. L. Udovitch, A.-M.  
Turki  
Volume 40. Pages 87-113

–Paul, Nwyia. 1979. Massignon ou  
une certaine vision de la langue arabe  
ماسينيون أو رؤية معينة للغة العربية  
in Stua-  
dia islamica / Directeurs / editors A. L.  
Udovitch, A.-M. Turki. Volume 50. pag-  
es 125-149.

–Paul, Nwyia.1978. Une cible d,Ibn  
Taimīya : le moniste al-Tilimsānī (m.  
690/1291) هدف ابن تيمية: الوحيدي التلمساني  
Mélanges offerts à Henri Laoust : Bul-  
letin d,études orientales .Volume 2.pp  
127-145.

fasc. 5. Beyrouth ; Vol 1.

–Paul, Nwyia. 1968. Le tafsīr mystique  
attribué à Ġa far ādiq التفسير الصوفي  
المنسوب إلى جعفر الصادق. Mélanges de  
l,Université Saint-Joseph. Beyrouth ;  
Vol 1. Pp183\_230.

–Paul, Nwyia. 1968. Textes mystiques  
inédits d.Abū-l- asan al-Nūrī (m.295-  
907) نصوص صوفية غير منشورة لأبي الحسن  
النوري. Mélanges de l,Université Saint-  
Joseph. Beyrouth ; Vol 1. Pp118-154.

– Paul, Nwyia.1970 La catéchèse soufie  
au VIe siècle de l,hégire التعليم الصوفي  
في القرن السادس الهجري Actes /  
Vcongrès international d.arabisants et  
d,islamisans, Bruxelles, 31 août-6  
septembre. pages 345-354.

–Paul, Nwyia. 1971. L,islam face à la crise  
du langage moderne الإسلام في مواجهة  
Extrait de : Travaux et  
Jours, N° 38, janvier-mars. Pp81\_101.

– بول، نوييا. ١٩٧٠، الكتاب الثاني من مواقف  
النفري. مجلة المشرق، المطبعة الكاثوليكية.  
بيروت. العدد ٦٤/٠٦. ص ص ٦٤١-٦٦٢.

– بول، نوييا. ١٩٧٠، تحقيق: وقائع الشيخ  
روزبهان البقلي الشيرازي: مقتطفات من كتاب  
كشف الأسرار ومكاشفات الأنوار. مجلة المشرق،  
المطبعة الكاثوليكية، بيروت. العدد ٦٤/٠٤-٠٥.  
ص ص ٣٨٥-٤٠٦.

–Paul, Nwyia. 1972. allāġ :Kitāb al-awāsīn  
الحلاج : كتاب الطواسين  
l,Université Saint-Joseph Publisher

Paul, Nwyia. 1980. L'appareil de l'islam (جهاز الإسلام) Extrait de «Pouvoirs : revue française d'études constitutionnelles et politiques» Paris, n°12, pages 47-56.

بول، نوييا. ١٩٨١. أضواء على التصوف المغربي من خلال آثار الشيخ عبد الله الغزواني، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس، الجامعة الأميركية، بيروت. العدد ١، صفحات: ٢٩٦-٥١٥. Paul, Nwyia, Introduction, traduction et notes de: Une correspondance islamo-chrétienne entre Ibn al-Munaim, un-ayn ibn Isāq et Qus ā ibn Lūqā مراسلة إسلامية مسيحية بين ابن المنجم بن إسحاق وقسطا بن لوقا. École pratique des hautes-études (Paris) VOL1. Pp526- 722.

«خواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام»  
تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة: (٣٣٠)

إذا كان الزهد غالباً عند الأدباء «انقياداً لداعي التقوى في النفس أيام الشيخوخة»<sup>(١)</sup>، فإن التصوف عند الزهاد الكبار نعمة تخرق ألبابهم أيام الشباب كسهم يصيبهم به كلام شيخ محقق عن طريق الصدفة. ذاك شأن الشيخ أبي محمد عبد الله بن عجال الغزواني، الذي استقطب خواطري وأنا أفتش عن موضوع أكتب عنه تلبيةً

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة لإحسان عباس (الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠): ١١٦.

لداعي الصداقة. وآمل أن يصبح الغزواني من أصدقاء الدكتور إحسان كما صيره هو صديقاً لي. ولنبدأ بخبر انتماؤه إلى طريقة الزهاد، فهو خبر لا يخلو من طرافة. وقد أورد الكتاني في كتاب «سلوة الأنفاس»<sup>(٢)</sup> في سياق كلامه عن الشيخ علي بن محمد بن صالح الأندلسي<sup>(٣)</sup> الذي سكن مدينة فاس وبنى فيها زاوية «في وادي الزيتون من عدوة الأندلس من فاس» إذ كان ينشر العلم ويترأس حلقات الذكر:

إن الشيخ أبا محمد الغزواني كان في أول أمره يقرأ العلم في مدرسة الوادي بعدوة الأندلس من فاس. وكانت جماعة من الفقراء تجتاز في عشية الخميس بباب المدرسة، فتساءل الطلبة فيما بينهم إلى أين يجتازون؟ فقال بعضهم:

(٢) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس للكتاني (طبعة حجرية، فاس، ١٣١٦) ٢: ٢٠٨ - ٢٠٩، نقلاً عن كتاب «مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن». وانظر أيضاً كتاب الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام لعباس بن ابراهيم المراكشي (تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ١٩٧٧) ٨: ٢٤٩.

(٣) توفي علي بن محمد بن صالح سنة ٩٠٣ / ١٤٩٧. وكان شيخ الجماعة التباعية - الجزولية في فاس (والتباعية أهل طريقة الشيخ عبد العزيز التباع [٩١٤ / ١٥٠٩] خليفة الجزولي). قال في «المرآة»: «هو من أهل غرناطة. وكان يطلب شيخاً يلقي إليه قياده، فكان يقال له «شيخك في العدة». فانتقل إلى فاس وفتح فيها حانوتاً في القيسرية. ثم قدم إليها من مراكش شيخ المشايخ عبد العزيز بن عبد الحق الحرّار الشهير بالتباع، ونزل بمدرسة العطارين، وقعد في وسط قببتها، وانحشر أهل فاس للتبرك به. وجاء الشيخ أبو الحسن (علي بن محمد بن صالح) في آخرهم... فقام إليه الشيخ... فتلقيه وأخذ بيده وصعدا في درج المدرسة، فمكثا هنيئاً ونزلاً. وطلب الشيخ سيدي عبد العزيز فرسه للركوب، فطلب منه الناس الإقامة فامتنع وقال: «إنما جئت لأداء أمانة كانت عندي لربها. فقد أدبتها». وهكذا تسلّم عليّ الأندلسي المشيخة في فاس (انظر الإعلام ٨: ٤٢٨).

العلامة الهمام، الصوفي المحقق، الكامل المدقق، بركة العصر، وإمام الدهر، شيخ المشايخ، العارف بجلال الله وجماله، الداعي إلى حضرة الربوبية بجميع أقواله وأحواله، ذو المقامات السنية، والأحوال المرضية، والهمم العلية، والإشارات الخفية، والمواهب الربانية، والأسرار العرفانية، سيد أهل زمانه، وفريد عصره وأوانه، القطب العوث الجامع، الوارث الرباني»<sup>(٥)</sup>.

إننا، بإزاء هذه الأوصاف التي تكشف عن مدى إعجاب المثقفين برجل كالغزواني، نجد الأساطير الكثيرة التي تنبت حول الغزواني وأمثاله في الأوساط غير المثقفة، تلك الأساطير التي تجسم «البركة» التي يمتاز بها الصوفي والتي تمثل في الواقع مختلف «الكرامات» التي تنسب إليه. ومهما قللنا من أهمية هذه الأوصاف بنسبتها إلى البلاغة، ومن واقعية هذه الأساطير باعتبارها وليدة الخيلة الشعبية، فهناك سؤال يظل مطروحاً: لماذا ألصقت تلك الأساطير بالغزواني أو هذا أو ذاك من الصوفية دون غيرهم؟ المبالغة اللغوية معروفة عند المترجمين للأولياء، والمخيلة خصبة عند المؤمنين الجهال؛ وإنما الأمر الذي يجب تفسيره هو علاقة المبالغة وخصب المخيلة بهذه الشخصية بالذات دون سواها. ومن هنا تأتي أهمية الغزواني؛ ذلك أننا إذا عدنا إلى سيرته وقرأنا مؤلفاته، نفهم لأي سبب نال حق الصدارة بين صوفية عصره ونعلم أن المبالغة في الأوصاف التي أسبغت عليه ليست إلا علامة القصور عن وصفه في الواقع لعلو شأنه وسريته باطنه، وأن الأساطير لم تتولد من حوالبه إلا لأنها الطريقة الوحيدة للتعبير بلغة ما عن الأثر الذي تركه في

لزاوية قريبة من هنا. فقالوا: هل لكم في المبيت معهم فتفرج في حضرتهم إلى السماع ونشبع من الكسكسوا<sup>(٤)</sup> عندهم. فساروا إلى الزاوية بهذا القصد، وفيهم الشيخ عبد الله الغزواني. فلما أخذ الفقراء في الذكر دخل معهم فيه. فأدركه في باطنه أمر عظيم قال إنه كُشف له فيه من العرش إلى الفرش. ويقال إنه غسل أيدي الفقراء بعد الطعام وشرب الماء الذي غسلوا فيه أيديهم. فلما نزل به ما نزل، جلس بين يدي شيخ أولئك الفقراء، وهو الشيخ أبو الحسن علي بن صالح... وقص عليه قصته وطلب منه أن يقبله مريداً. فقال له الفقراء: يا سيدي اقبله، فقال لهم: هذا عربي قوي (بالقاف القريبة من الكاف كما ينطق به أهل الأندلس)، بل أبعثه للشيخ. فبعثه لمراكش لشيخه شيخ المشايخ... قطب وقته... وإمام الطائفة في عصره... أبي محمد سيدي عبد العزيز ابن عبد الحق المعروف بالتباع.

هذا كان بدء شأن الغزواني، وأهمية هذا الصوفي أنه قد ترك لنا مجموعة من المؤلفات، نظماً ونثراً، نستطيع أن نتبين من خلالها مستوى معرفة هؤلاء الصوفية بالعلوم الكشفية، وعمق أفكارهم، ومتانة ثقافتهم الدينية، وقوة شخصيتهم الروحية، وهو أمر يسوغ حشد الأوصاف الطنانة التي يوصفون بها في كتب التراجم. فإني كثيراً ما أتساءل: أكانت هذه الأوصاف من البلاغة المصطبغة الفارغة من كل مدلول واقعي أم أنها ذات أساس من الواقع، تحمل الكثير من المدلولات الحقيقية؟ من هو يا ترى هذا الشيخ الغزواني الذي يذكره الكتاني - مثلاً - بالأوصاف الآتية التي لا يستحقها إلا القلة من أكابر العلماء الصوفية: «الشيخ، الإمام،

(٤) الكسكسُو أو الكسكسوا (أو الكسكسون): طعام مشهور في المغرب.

(٥) اسلوة الأنفاس ٢: ٢٠٩.

قلوب تلامذته، ذاك الأثر ليس من الأسطورة في شيء<sup>٤٦</sup>.

هذه الملاحظات كانت ضرورية نظراً لما كتبه بعض المستشرقين الثانويين عن صوفية المغرب وعن التصوف المغربي، إذ حصروه في ظاهرة شعبية أسطورية سمّوها Maraboutisme (وتلك كلمة تقابل حركة «المرابطين»). إن «المرابوتيسم» - أو الطُرُقِيَّة، إذا شئنا أن نستعمل التعبير العربي المقابل - كما يفهمونه هو سقوط التصوف الأصيل في الشعوذة، وتحوُّله من شوق إلى الله يَخْلُق في عِشاقه شخصيةً جديدةً إلى حركة شعبية شبه همجية، تستفزها قوة انفعالية غريزية، يستغلها رجل ورث «البركة» عن أبيه أو شيخه وتحنَّك في مهنة خلق «الكرامات»، تلك الكرامات التي تساعد على أن يبيث في قلوب البسطاء من الناس الحب والخوف معاً، فيقصدونه، حياً أو ميتاً، ليقضي حاجاتهم الدينية والدينيوية، وهذا يكوّن له في حياته نفوذاً سياسياً، فتهابه السلطات المحلية، فتحاربه تارة لتضع حداً لنفوذه، وتستميله طوراً ليوقف بجانبها عند حلول الأزمات السياسية أو الاقتصادية في منطقة أو بلد ما.

ولا ننكر أن الشيوخ الصوفية أدّوا دوراً في مصير المغرب السياسي (كما كان الحال في المشرق أيضاً)، وسنرى أن الغزواني نفسه كان له موقفه الخاص من سلطة بني مرين الوطاسيين وأنه انحاز إلى الطرف المعادي لهم، أي إلى السعديين، ولكن الذي نريد أن نبرهن عليه في هذا البحث هو أن النفوذ السياسي كان نتيجة ثانوية لم يطلبها الصوفية لذاتها غايةً أولى، وأن الغزواني وأمثاله لم يُسقطوا التصوف في الشعوذة والخرافات، وأن المكانة التي احتلوها في المجتمع المغربي لم

تكن إلا نتيجة سموهم في الكمالات الدينية، وعلوّ تصوفهم إلى مستوى يضارع علوّ تصوف أمثالهم في المشرق. لقد كانت قراءة آثار الغزواني مفاجأة طيبة بالنسبة إلينا، وقد وقفنا عليها صدمة عند مرورنا بالرباط في الصيف الماضي، وكنا نعتقد - من قبل - أن الفكر الصوفي العالي كان قد هاجر من الأندلس والمغرب مع ابن عربي وابن سبعين والششتري والحراني وغيرهم، وأن المغرب بعد عودته إلى المذهب المالكي في عهد بني مرين كان قد عاد إلى التصوف الكلاسيكي (كما هو عند المحاسبي) أو إلى التصوف الشعبي كما هو الحال عند الجزولي (١٨٦٩ / ١٤٦٥) في كتابه «دلائل الخيرات». وإذا بالغزواني يتكلّم لغةً مختلفة، هي فلسفية باطنية من جهة، وهي متأصلة في الذهنية المغربية العريقة من جهة أخرى، حتى إنه لا يخشى أن يخلط في مكاتباته بين أَلغاز المصطلحات الصوفية الفصيحة واللغة العامية المغربية، وهذا مما يعطي لكتابته طابعاً خاصاً وروعةً هي روعة الأشياء عندما نراها لأول مرة في فجر النهار.

لنعرّف إذن بالشيخ ابن محمد الغزواني قبل أن نضع بين أيدي صديقنا الدكتور إحسان مقتطفات من مؤلفاته، والله يشهد أننا لم نقصد من خلال ذلك استهواءه وجذبّه إلى طريقة في الحياة نأمل أن لا يرغب فيها إلا عند حلول الشيخوخة بعد سنين عدّة بإذن الله.

\*\*\*\*\*

نسبة الشيخ الغزواني تدل على أنه من غزوان، وغزوان «قبيلة من العرب بالمغرب»، ويضيف المترجمون له أن «من الناس من يجعل نسبه علّوياً»، وكان والده أبو البركات عُجال صوفياً

«يجول في البلاد، ليس له قرار ولا يلوي على شيء»<sup>(٦)</sup>، ولذا لا نعلم أين ولد عبد الله ابنه، ولكن الظاهر أنه عاش في فاس منذ صغره، لأن أباه كان يقول في تجواله: «عندي ابن تركته يقرأ العلم سيكون له شأن»، وقد رأينا من قبل أنه «كان في أول أمره يقرأ العلم في مدرسة الوادي» بفاس، ثم ترك هذه المدرسة وجاء إلى الشيخ أبي الحسن الأندلسي الغرناطي عن طريق الصدفة كما ذكرناه، «فسأل منه أن يسلك به طريق التربية النبوية، فقال: يا ولدي، صاحب الوقت بمراكش فاذهب إليه؛ وأمره بالرحلة إلى الشيخ أبي فارس عبد العزيز التابع المعروف بالحَرَّار، نسبةً إلى صناعة الحرير. فرحل إليه ولازمه».

أما طريقة تربية التابع لمريده الغزواني فهي لا تخلو من غرابة. يقول صاحب كتاب «دوحة الناشر»<sup>(٧)</sup>:

فرحل إليه ولازمه، فأمره الشيخ برفع الحطب إلى الزاوية ورعاية الدواب، فبقي على ذلك مدة. ثم استعمله على حياطة بستانه وخدمته، فاستمر على ذلك الحال، إلى أن قال الشيخ يوماً لأصحابه: قوموا بنا إلى بستان الغزواني، فمهما وجدتم فيه ثمرة فاضربوا وانهبوا ثمار البستان. فذهبوا إليه وهم مئون والشيخ خلفهم. فلما وصلوا إلى البستان وجدوه مصوناً وبابه عتيد وسوره حصين. فلم يستطيعوا أن يتسوروا عليه... ووصل الشيخ فقال لهم: ما منعكم من الدخول؟

(٦) يُنظر ترجمته في كتاب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن عسكر (تحقيق محمد حجي، الرباط، ١٩٧٧): ٩٩ - ١٠٠. وتوفي أبو البركات عُجال نحو سنة ١٥١٠/٩١٥، وكان رغم طباعه الغربية شيخاً معروفاً بتقواه وزهده «وله مآثر كثيرة».

(٧) يُنظر: كتاب (دوحة الناشر) ص: ٩٦ - ٩٩.

قالوا: لم نجدوا (كذا) سبيلاً! فقال الشيخ: مثل الغزواني من يحمي حماه! ثم قال له: انهب فقد كمل حالك.

مثل هذا النص لا يُري إلا الظواهر، ولهذا لا يعطينا الفكرة الصحيحة عن كيفية اكتمال حال الغزواني الروحي. وسنرى في نصّ للغزواني هو نوع من السيرة الذاتية ماذا كانت المراحل التي مرّ بها في تربيته الصوفية. أما الآن فنكتفي مع المؤرخين بقراءة ظواهر حياته من حيث الزمان والمكان.

يقول المترجمون له إنه لعد ذلك توجهً إلى بلاد الهبط<sup>(٨)</sup> «فنزل بها على قبيلة يقال بهم بنو خزنكار. واجتمع عليه الناس واشتهر أمره وعظم صيته، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله<sup>(٩)</sup>، وكان يومئذ ببلاد الهبط، قد خرج إليها بقصد الغارة على نصارى آصيلاً... فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزواني، وخشي على الدولة عاقبة أمره، وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكريم البادسي السفيناني الأصيل، وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال ويخرج في بعوثهم قاضياً. فكثرت سعايته بالشيخ<sup>(١٠)</sup> حتى وقر ذلك في نفس السلطان، فبعث إليه فحضر، وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتجانوت، وجعله في سلسلة،

(٨) في ناحية القصر الكبير في الشمال الغربي من المنطقة المعروفة بـ«الغرب».

(٩) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد الشيخ المريني الوطاسي المعروف بالبرتغالي، لأن البرتغاليين أسروه سبع سنين. ولي السلطنة من سنة ١٥١٢/٩١٩ إلى سنة ١٥٢٤/٩٣١.

(١٠) العداوة قديمة بين الفقهاء والصوفية منذ أن انقسم العلم إلى ظاهر وباطن؛ وكثيراً ما لعب الفقهاء دور المشاغب بين الصوفية وذوي السلطان.

(١١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد الناصري (الدار البيضاء، ١٩٥٥) ٤: ١٤٤ - ١٤٥.

وبعث به إلى فاس»<sup>(١١)</sup>. وكان ذلك في منتصف سنة ١٥١٣/٩١٩ أي في السنة التي توفي فيها الشيخ محمد ابن الغازي، شيخ الجماعة بفاس وإمام القرويين. فإن هذا الشيخ كان قد صحب السلطان البرتغالي في غزوته، فاعتلَّ أثناء ذلك وسأل أن يُحمل إلى فاس. «فلما وصل إلى مقربة عقبة المساجين من حوز فاس، اشتدَّ به الحال، فأمر أصحابه أن يريحوا به هناك. فبينما هو كذلك إذ مرَّ بهم الشيخ سيدي أبو محمد الغزواني في سلسلة مع الستائرية (= الحرس). فلما رآه سأل الستائرية أن يميلوا به إليه حتى يعوده... فدعا له وانصرف». وكان هذا اللقاء أذانا بالرحيل إلى ابن غازي لأنه قال لأصحابه: «إن الله وعدني أن لا يقبض روعي حتى يريني ولياً من أوليائه»<sup>(١٢)</sup>. أما الشيخ الغزواني فظلَّ تحت المراقبة في قسبة فاس البالي حتى عاد السلطان من غزوته، فأخبره صاحب شرطته عن الشيخ بأمر عجيبة... فأمر السلطان بسراحه، واعتذر إليه، وطلب منه الدعاء، ورغب منه أن يكون سكناه بفاس. فأجابه إلى ذلك، وبنى زاوية بداخل باب الفتوح»<sup>(١٣)</sup>. ولا نعلم شيئاً عن هذه المدَّة من حياة الغزواني سوى أنها دامت سبع سنين، أي حتى سنة ١٥١٩/٩٢٦، وهي السنة التي «تعدَّ فيها المطر، وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث. فأخرج الشيخ من وادي اللبن ساقية لم يكن في سواقي السلطان وغيره مثلها»<sup>(١٤)</sup>. فبعث إليه أخو

السلطان - وهو الناصر -... وقال له: نحن أحقُّ بتلك الساقية، فقال له الشيخ: خذها»<sup>(١٥)</sup>. وكان ذلك سبب تركه فاس وعودته ثانية إلى مراكش، حيث كان قد استقر أمر السعديين. ويقال إنه قال عند خروجه من فاس: «ارتحل الأمر عن بني مرين برحيلي عنهم» - وفي رواية أخرى هي أقرب إلى الواقع لأنها باللغة العامية، يقال إنه لما توجه لتقاء مراكش «أخذ خنيفه»<sup>(١٦)</sup> في يده وجعل يشير به من جهة فاس إلى جهة مراكش ويقول: «أيا يا سلطنة إلى مراكش»... ومعنى «أيا» بلغة عامة المغرب «سيرى معي»<sup>(١٧)</sup>. وفي الواقع كانت مراكش والجنوب قد استقلت آنذاك على يد أبي العباس الأعرج السعدي. وقد حاول السلطان أبو عبد الله البرتغالي أن يقضي على السلطنة الجديدة، فحاصر مراكش سنة ١٥٢٣/٩٣٠، وطال الحصار، «فقيل للشيخ الغزواني: إن أهل مراكش سئموا الحصار. فركب الشيخ في جماعة من أصحابه، وخرج من باب فاس، فوقف ينظر. فجاءت رصاصة ضربت صدره، فقبض عليها بيده وقال: هذه خاتمة حربهم، ثم رجع إلى منزله»<sup>(١٨)</sup>. وقد ظهر مصداق ما قاله، لأن الأنبياء وردت من فاس بأن أبناء عم السلطان البرتغالي قد نبذوا دعوته وخلعوه، فترك مراكش للوقت، وقفل إلى فاس، «ولم يعد لبني وطَّاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها». وقد استقر الغزواني في مراكش لأن الصوفية كانوا قبل ذلك قد أقرَّوا له بالوراثة الشاذلية

(١٢) دوحة الناشر: ١٤٥.

(١٣) المصدر نفسه: ٩٧.

(١٤) لا شك أن هذه المهنة كان الغزواني قد أتقنها عندما كان يتعلم التصوف على يد الشيخ التباع كما رأينا من قبل. وعلى كل حال فإنه «كان من عادته أن يأمر أصحابه بالحراثة والغرس والخدمة وحفر السواقي» (الإعلام: ٢٥٦).

(١٥) الاستقصا ٤: ١٤٦. وكان الناصر هذا معروفاً

بشراسة أخلاقه وحبِّه لسفك الدماء. فلا عجب إذا خافه الغزواني وتجنَّب شره.

(١٦) الحنيف أو الحنيفة: عبا من شعر العنز

(١٧) قارن بين نصي دوحة الناشر: ٩٧ والاستقصا ٤:

١٤٦ - ١٤٧.

(١٨) الاستقصا ٤: ١٤٧ - ١٤٨.

الجزولية بعد الشيخ عبد العزيز التابع، فأسس زاوية، وانتفع به في هذه المدة وقبلها وبعدها أقوام، «وتخرّج عليه أشياء كثيرون. وكان هو المشار إليه بالقبطانية في الوقت، وقدره جليل وأمره شهير»<sup>(١٩)</sup>. وقد بلغت شهرته المشرق عن طريق تلامذته الذين سافروا إليه، فكتب إليه الشيخ ناصر الدين اللقاني<sup>(٢٠)</sup> «يسأله تفسير الفاتحة على طريق القوم، فكتب إليه بشيء من ذلك... وكان سأله مع ذلك عن القطب: أين هو؟ فكتب إليه يشير إلى نفسه. فلما بلغه الجواب قال لحاضريه: هذا صاحب الوقت». وناهيك أن الشيخ كان ينسب لنفسه السلطنة علاوة على القطبية. وكان يقول لأصحابه: «إذا قيل لكم: من سلطانكم؟ فقولوا: سيدي عبد الله الغزواني». ويقال إنه «سمع مرة امرأة تزغرت على السلطان وهو مارٌّ في الطريق، فقال لها: عليّ فلتزغرتي يا بنت الحزينة. أنا سلطان الدنيا والآخرة»<sup>(٢١)</sup>. وليس هذا من باب الكبرياء بل تعبير عن شعوره بشخصيته الروحية التي ترمز إلى قوتها وسموها كلمة «السلطنة». لأنّ السلطان هو المتسلط أولاً على ذاته، ومتى بلغ ذلك يصبح مُطاعاً. والمطاع في لغة الصوفية هو

المتصرف في الأشياء تصرّف الله فيها. فهو سلطان الدنيا والآخرة<sup>(٢٢)</sup>.

وإذا كان الغزواني قد عاد إلى مراكش سنة ١٥١٩/٩٢٦، فقد دامت إقامته وعمله فيها تسع سنين، لأنه توفي سنة ١٥٢٨/٩٣٥ - ١٥٢٩. والظاهر أن سبب وفاته كان سكتة قلبية على ما ذكره المؤرخون: وكان من موته على ما في «التحفة»<sup>(٢٣)</sup> أنه «خرج يوماً على عادته إلى البادية في صلح، وخرج معه أصحابه، فغابوا ما شاء الله ثم رجعوا. فلما كان قريباً من البلد وهو راكب على فرسه سائر على الطريق، إذ رأوه قد مال عن فرسه. فأسرعوا إليه، فإذا هو ميت. فحملوه إلى المدينة ودفنوه بزاويته بحومة القصور داخل مراكش، وبنوا عليه قبة حافة، وهو مزارع عظيمة مشهورة»<sup>(٢٤)</sup>. ويختم صاحب «ممتع الاسماع» سيدي محمد المهدي الفاسي ترجمة الغزواني بقوله: «وكثر انتشار الطريقة الجزولية، وتفرّع شجرتها من هذين الشيخين: سيدي عبد العزيز التابع وارث الشيخ (الجزولي) ووارثه سيدي عبد الله الغزواني. حتى إن الطريقة والطائفة تنسبان إليها فيقال «تباعية» ويقال «غزوانية»»<sup>(٢٥)</sup>.

تلك هي التقاطيع الرئيسية لهيكل حياة

(٢٢) يُنظر كلمة العلاج: «بسم الله» منك بمنزلة «كن» منه. فإذا أحسنت أن تقول «بسم الله» تحققت الأشياء بقولك «بسم الله» كما تحققت بقوله «كن» (حقائق التفسير للسلمي في سورة النمل: ٣٠) ١٩٩١، ص ٣٥١.

(٢٣) هو كتاب تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية لسيدي محمد المهدي الفاسي (١١٠٩/ ١٦٩٨). يُنظر «مؤرخو الشرفاء» لليفي بروفنسال، ص ٢٧٣ - ٢٥٧).

(٢٤) ذكره صاحب الإعلام ٨: ٢٥٨. ولا حاجة أن نذكر أن قبر الغزواني هو أحد المزارات السبعة التي يزورها أهل المغرب عند زيارتهم «لسبعة رجال» مراكش.

(٢٥) المصدر السابق.

(١٩) الإعلام ٨: ٢٥٢.

(٢٠) انظر كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف (المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩ - ١٣٥٠): ٢٧١ - ٢٧٢، والترجمة الفرنسية لكتاب الإجازة (ترجمة ابن أبي شنب): ٢٦٥؛ وانظر بروكلمان، الملحق ٢: ٤٣٥. «اقرأ العلم نحواً من ستين سنة وعمّر حتى انحصر الأزهر في تلامذته وتلامذة تلامذته. إليه انتهت رئاسة العلم بمصر بعد موت أخيه الشمس. واستفتي من سائر الأقاليم». مولده سنة ١٤٦٨/٨٧٣ وتوفي سنة ١٥٥١/٩٥٨.

(٢١) جذوة الاقتباس بابن القاضي ٢: ٢١٠، والإعلام ٨: ٢٥٣. وهذا الكلام - وهو من باب الشطحات - من نوع كلمات أبي يزيد البسطامي وغيره..

الغزواني الظاهرة في عالم الزمان والمكان، كما رآها المترجمون له. بقي أن ننظر إلى حياته من الداخل، ونكتشف شخصيته من خلال ما خلف لنا من الآثار المترجمة عن بواطنه. وسنرى عندئذ أن لسان مقاله لم يكن أقل سطوة من لسان حاله<sup>(٢٦)</sup> وأن هذا «الفلاح» الذي كان «دأبه الوحيد الحركة في أسباب الحراثة واستخراج المياه» لم يكن من الصوفية الذين أخذوا بما يسميه المستشرقون بالمرابوتيسم (الطُرُقِيَّة) فهذا يتميز بفقر الحياة الروحية والإسراف في الأهمية المعطاة للكرامات والخرافات. وإن مؤلفات الغزواني لتشهد له بعمق الأفكار وعلوها، وتبرهن على تبحره في العلوم الصوفية، ومقدرته على التعبير عنها بلغة ومصطلحات لا تخلو من غموض. ولا بد أن هذا الغموض كان مميزاً لفكر الغزواني لأن المؤرخين أفردوه بالذكر؛ قال الكتاني: «له كلام في الطريق نظماً ونثراً، إلا أنه غامض لا يفهمه إلا من فتح عليه»<sup>(٢٧)</sup>.

ولحسن الحظ قد وصل إلينا قسم كبير من مؤلفات الغزواني، ولا بد أن خزانات المخطوطات الخاصة تحتوي على عدد كبير من نسخها. أما نحن فقد وقفنا على مخطوطتين في الخزانة العامة بالرباط؛ الأولى تحت رقم ٣٦٠٣ (D٢٠٠٢) والثانية تحت رقم ٣٦٠٤ (D١٦٦٠)<sup>(٢٨)</sup>. أما الأولى فهذا وصفها في الفهرس: «رسائل في

التصوف لأبي محمد... الغزواني...، في مجموع من ص ١٢ - ٢٨٨<sup>(٢٩)</sup>، مسطرتها ٢٤، مقياسها ١٧٠/٢٥٥، بخط مغربي جيد. وقع الفراغ من نسخها يوم الأربعاء ٢٤ محرم سنة ١١١٤هـ (١٧٠٢م) على يد عمر بن الحاج الطاهر». وأسماء الأعلام والعناوين مكتوبة فيها بخط كبير. وفي بعض المواطن منها أماكن عملت فيها الأرضة. أما المخطوطة الثانية فهذا وصفها: «رسائل أخرى في التصوف ما بين منثور ومنظوم»<sup>(٣٠)</sup> لعبد الله... الغزواني...، ورقاتها ١١٥ (أي من ١ ب إلى ١٥٥ ب)، مسطرتها ١٩، مقاسها ١٨٠/٢٠٣. بخط مغربي واضح ملون. والآيات القرآنية والعناوين وأسماء الله مكتوبة بلون أحمر أو أخضر أو أزرق في هذه المخطوطة، وهي غير مؤرخة، ولعلها ناقصة، لأنها تحتوي على كل ما تحتوي عليه المخطوطة الأولى، وترتيب القطع فيها مخالف لترتيبه في المخطوطة الأخرى.

ونحن سنرمز في الحواشي إلى المخطوطة الأولى بحرف الغين (غ) وإلى الثانية بحرف الراء (ر).  
**أما القطعة الأولى** التي نستلها من مؤلفات الغزواني فهي التي أسمينها بالسيرة الذاتية. وهي قطعة قل أن يوجد مثل لها في التصوف. وهي طريفة، أولاً لأن فيها نوعاً من المزج بين اللغة الفصحى والعامية يجعلها تنطق بلسان حيٍّ معاصرٍ قريب إلى الحياة الواقعية، وثانياً لأن الغزواني يكشف فيها عن نفسانية حساسة

(٢٩) يحتوي المجموع من ١-٥ على أدعية وحواشٍ مختلفة مكتوبة بخط رديء، ومن ٥-٩ على قطع مستلة من كتاب «القصدي إلى الله» لأبي حارث المحاسبي، يُقرأ في آخره: «انتهى كتاب الشاذلي رضي الله عنه ورحمه ونفعنا له أمين. مع ما أضيف إليه من كتاب المحاسبي رحمه الله تعالى ورضي عنه».  
 (٣٠) الواقع أن في المخطوطة الأولى أيضاً منثوراً ومنظوماً.

(٢٦) يقول صاحب دوحة الناشر (ص ٩٨): «وكان لسان الحال أفصح لديه من لسان المقال». وهذا لا يعني أن لغته كانت ضعيفة وتعبيره غير بالغ، بل أن حياته كانت تفصح عن مبادئه الصوفية.

(٢٧) سلوة الأنفاس ٢: ٢١٠.

(٢٨) يُنظر فهرس المخطوطات (الرباط، ١٩٧٨) ١: ٢٩٠.

عاطفية لم تتعود عليها عند هؤلاء المشايخ ذوي الحياة الخشنة، العائشين بعيداً عن البيئات المثقفة الرهيفة<sup>(٣١)</sup>: وكان الغزواني قد سها هنيهة عن «الأنا» البغيض فراح يتكلم لتلامذته عن ماضيه مستحضراً ذكرياته عن أيام الشباب:

[٢٠٥] فلما كان يحدثنا سيدنا وإمامنا على حقيقة هذا الفن، يحرصنا على حقيقة الإيمان والإسلام، فتكلم منا نبيّه وعامل، ووافي بكلام رقيق وحقيقي وموفق، فقال له: يا سيدي صف لنا شيئاً من أحوالك، ومن حق حقيقتك، وكيف كان تأدبك مع سيدنا وسيدك!

فقال لهم السيد الكامل الوافي: نعم! كنت كما كنتم، نقرأ القرآن ولا نعرف حقيقة الحق، وكنّت نقرأ «الرسالة»<sup>(٣٢)</sup> ولا نعرف حقيقة السنّة. وكنّت نقرأ «أحكام القرآن»<sup>(٣٣)</sup> ولا نعرف حقيقة الإيمان. وكنّت نقرأ النحو ولا نعرف حقيقة الصحو، وكنّت نجتهد في إجازة المقال ولا نعرف حقيقة إجازة الأحوال، وكنّت نحسب نجلس في حمام أهل التدريس ولا نعرف مقاماً من مقام التونسي. وكنّت ندرس في «الجرومية»<sup>(٣٤)</sup> ولا نحقق [أحوال]

(٣١) - هذه القطعة ليست ثابتة إلا في مخطوطة غ (٢٠٥ - ٢١٢)

(٣٢) لا بد أنها «رسالة» ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي.

(٣٣) هناك عدة تفاسير تحمل هذا العنوان، والمشهور منها في المغرب تفسير أبي بكر ابن العربي وتفسير القاضي أبي محمد ابن فرس.

(٣٤) أو «الأجرومية»، مختصر في النحو معروف، من تأليف أبي عبد الله محمد الصنهاجي المعروف بابن أجروم المتوفي في فاس سنة ٧٢٣/١٣٢٣.

(٣٥) «الفية» ابن مالك المعروفة في النحو أيضاً. ومن الممكن أن تكون أيضاً «ألفية» العراقي في علوم الحديث (انظر ليفي بروفنسال، المصدر السابق: ١٢ - ١٤).

أهل الصوفية. وكنّت نقرأ «الألفية»<sup>(٣٥)</sup> ولا نقرب لمجالس الأئمة. وكنّت نقرأ «اللامية»<sup>(٣٦)</sup> ولا نعرف حقيقة الصحبة. وكنّت نسمع حديث المستغيث ولا نعرف حقيقة الغوث. وكنّت نسمع حديث الأقطاب ونبعدهم في قلبي. وكنّت نسمع الصحابة وهم أقرب إليّ من آباء. وكنّت نسمع حب نبينا محمد العربي وهو أقرب في قلبي. وكنّت نسمع قدرة ربنا وهو أقرب إلينا من سمعنا وبصرنا<sup>(٣٧)</sup>. وكنّت نسمع جلاله ونحن من حكمه. وكنّت نسمع جماله ونحن في علمه. وكنّت غايته: فأين ما توجهنا فهو معنا، وحيث ما كنا فهو يرعانا، وحيث ما جلسنا فهو محتوي علينا، وحيث ما وقفنا فهو علينا، وحيث ما [٢٠٦] درنا فنصيبه فينا، وحيث ما نرى فنرى الحكمة فيه، وحيث ما كان وما يكون وما يأتي فهو فيه ولا يحتويه، ومنزه عن خبر وعيان، ولا يكون في مكان، سبحانه هو الله المقدس الحي الذي لا ينالم<sup>(٣٨)</sup>.

وكان سيدي وأبي رضي الله عنه من المجاهدين، يقطع رقاب الكافرين في الظاهر والباطن<sup>(٣٩)</sup>، وكان من جملة القراء والمساكين والضعفاء، وكنّت عنده راضياً مرضياً وشاكراً مشكوراً... وكان الله عنه لا يسخرني إلا في مرضاة الله، وموهوباً ومسبلاً في حق حقيقة ذات الله، وكنّت نقرأ في المدينة المطرودة الباس فاس، وكنّت في مدرسة «الواد» في شاطئ «الوادي»، فأتى إليّ بعض من الفقهاء من أصحابه رضي الله عنه، فأرادوا يحوزوا شتوة

(٣٦) هي «لامية الأفعال» لابن مالك.

(٣٧) إشارة إلى الحديث المشهور «كنّت سمعه وبصره»

(٣٨) إشارة إلى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

(٣٩) يبدأ الغزواني باستحضار ذكرياته عن والده الذي كان أول شيخ تربى على يده.

عامهم في مجالس علوم الأحوال والمقال. وكانوا السادات رضي الله عنهم، محبوبين عند الله وعند المخصوصين من المخلوقات ومخفيين في خلق الله. وكان أبي رضي الله عنه من جنسهم وأشدّ قوةً وتمكيناً، وكنت نجانسهم ونجري على أغراضهم ونوقرهم ونتأدب معهم ونحبهم غاية على محبة أبي رضي الله عنه، وكنت في حالة وكانوا رضي الله عنهم في حقيقة.

فلما خرج العام وجاز علم الكلام، فقالوا: يا ابن أخينا في الله، لقد جزاك الله عنا خيراً، نريد أن نساfer إلى أهلنا، فادعوا لي دعوة مباركة، وحسنوا الثناء وأخذوا بالعزم في إنجاز سيرهم. وخرجت معهم وبتّ معهم ليلة لعزتهم ومحبتهم، ومراعياً لجاه أبي رضي الله عنه. فلما وادعتهم ورجعت إلى المدينة ودخلت بيتي، فاندرع فيّ، وتوحشت كثيراً في وحشتهم وتأثير محبتهم، وصرت حيراناً وتائهاً ولهفاناً ولا نريد كلاماً، وعفت إماماً وعالمًا، مما رأيت من حسن السادات الأخيار ومن تفضيل ربنا جل جلاله ومن حقيقة [٢٠٧] نور نبينا محمد. فطلع هلق حزن وأسقام وكدره وندامة أياماً معدودة. وتأمل كيف تتخذ حقيقتهم ومن أي جهة تُنال، إلا ورقّص (= ساع) أرسله الله عليّ من حيث لا نظنّ، فنظر مني وقال لي: أيها صاحب، ما لك في هذه الحالة؟ فقلت له: وأي حالة؟ فقال لي: لقد طلع عليك غيار! فقلت له: وما أمري؟ فقال لي: تقدّم معي، فقلت له: لأي حضرة؟ فقال لي رضي الله عنه: لحضرة الأمان ودار السلام وجنان أهل العلوم والحكم، وفيها حقيقة سر سيّد الأنام، وفيها الأحبة والمحبّون مجتمعون على التمام. فقلت له: في أي بقعة؟ فقال رضي الله عنه: في جامع الأزهار. فقلت له: في أي بهوة؟ فقال لي: في بهوة قاف وبهوة كاف وسر

الطاء وعلم الحاء، فعقدت عقيةً واثقةً، واستعنت بالله عليها ألا تنفسخ ولا تنصرم ولا تتشتت ولا تنتهك، ورفعْتُ يدي إلى الله فقلت: اللهم إن كان هذا مني فلا تجعل لي فيه إرادة، وإن كان بأمرك وتوفيقك، فاجعلني [على] خزائن العلم وأمدني بالسّرّ القديم تنتفع به ويتنفع به أهل الدين والإسلام. وختمت دعائي بالصلاة على نبينا محمد، وقلت له: يا سيدي، هل أنت منهم؟ فقال لي رضي الله عنه: أنا رقاصهم، وفيهم إمامنا وسيدنا وقدوتنا وهدايتنا وسعادتنا، فعلمت أن الحق حقيق، ورأيت سيمه الفضلاء عليه، فتعجبت في طبيعته وموافقاً في كلامه فلا يريدوه ينقص، فانزعجت مسرعاً.

فقال لي رضي الله عنه: كن صامتاً وافعل كما أنا، ونكلم السيّد بإشارتنا. فقلت له: نعم. و وافقته في مشيه وترتيبه، وصبنا السيد المقدم الهميم أبا عبد الله بن صالح<sup>(٤٠)</sup> جالساً ومستويّاً وهو يحدث أصحابه بالحديث المفرح والقرآن المفصح. وكان مسكنه في مدينة سيدنا داوود<sup>(٤١)</sup>. واستمعت لحكم كلامهم وحقيقة علومهم، ونظرت في حقيقتي: لم نر فيّ جواباً، وعجزت عن طريقة الصواب، فقلت في نفسي: أنا من المحجوبين ومن الباطلين ومن

(٤٠) - هو على الأصح الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن صالح الغرناطي الأندلسي. وقد رأينا كيف أن المؤرخين الذين لا ينظرون إلى الأشخاص إلا من خلال التاريخ «الزمني الأفقي» يروون قصة لقاء الغزواني مع شيخه الأندلسي في جماعة من «الطلبة» الذاهبين ليلاً «للفرجة» في إحدى حلقات الذكر. أما هنا فالغزواني يستحضر تاريخ حياته في ضوء ما يسميه الفلاسفة العرفانيون «التاريخ النفساني الباطني»، فيصف لنا التطور الروحي الذي أوصله إلى شيخه الجديد.

(٤١) من الأرجح أن يكون مدلول هذه العبارة مجازياً لا جغرافياً. إلا إذا عني بها سيدنا داوود، أحد أولاد الإمام إدريس مؤسس مدينة فاس!

المسوّفين ومن المطرودين ومن المختالين ومن الجاحدين ومن الكذّابين ومن المحرومين، ومن المزيّفين من غير حقيقة، ومن الناطقين من غير بيّنة، ومن الواعدين [٢٠٨] من غير توفيق، ومن النائمين من غير تصديق، ومن الجالسين من غير تحقيق. فقلتُ: هيهات هيهات! قَرَّبِ البعدَ يا من يقول لشيءٍ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>(٤٢)</sup>. فحققت النظر فيهم فرأيت سمتهم ليست كسمة الواقفين على المنابر المخروبين، وليس كمثّل الجالسين على الكراسي المشقوقين، وليس كاجتماع الباغضين والجاحدين، وليس كاجتماع المنكرين والملتفتين، وليس كمثّل الموجهين للقبلة من غير وثيقة، وليس كمثّل المستعملين سنّة نبينا محمد (ص) من غير حقيقة، وليس كاجتماع الناطقين من غير بصيرة ولا حقيقة بيان البيّنة، وليس كاجتماع الناطقين بالمقال ولم يعرفوا حقيقة الأحوال، وليس كاجتماع المزيّنين من غير محبة، وليس كاجتماع المؤلفين من غير ملة، وليس كاجتماع المحبين على حظوظ الدنيا الخالية، وليس كاجتماع المحبين على حرف الآخرة. فلما تحققت في علمهم وكلام حكمهم وطبيعتهم وأحوالهم وصفاتهم وإيثارهم على بعضهم وتحننهم وتآلفهم وتمكينهم في طاعة الله وأدبهم مع سيدهم وترتيبهم مع بعض وخدمتهم للداخل عليهم... فلما فقت وتيقنت وحققت، فرأيت فيهم سمة تأثير النبوة، وأقاموا بتحقيق حقيقة السنة، ومجتمعين على أحسن غاية الملة، فألهمني الله إلى آية من كتابه وهي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)... فصرت في حبهم فانياً. فنظر فيّ السيد المهم المهيم فقال: مكفياً وهانئاً؟ فقلت

(٤٢) سورة النحل: ٤٠

له: يا سيدي، نريد أن نكون من أحبّتك، فقال رضي الله عنه: أنت منا وصاحبنا، ونحن متعلق ومحتوش في أكمام سيدنا وقدوتنا ووسيلتنا إلى الله وحببيبه نبينا محمد (ص)، فقلت له: يا سيدي إنني أريد القرب إليك ولم نجد [٢٠٩] عويناً ولا مفتاحاً ولا لواحاً ولا رواحاً. فقال لي السيد العارف المشرف: ارمِ السلاحَ وخذ اسماً من اسم سيدي كي تصيب الراحة. فألقى إليّ اسم «رضي الله عنه لا يفتقر»، و«قوي لا يتمزق» و«عزيز لا ينقطع» و«موصوف بالجلال» و«موصوف بالإكرام» ومسبجاً ومسرمداً (كذا) من اسمه واسمه الله، فاستعنت بالله، وتقويت بقوته، وأخذت فيه بالعزم والاجتهاد، ورميت الود والوداد، والتزمت على ذكر اسمي<sup>(٤٣)</sup> أياماً معدودة أو ثلاثة، وكان السيد الهيم يقول لأصحابه: من لا يفتح له في يومين أو ثلاثة إلى أربعين يوماً فنيته فاسدة وعقيدته فاسخة.

ونجته في ذكر اسمي ونرغب إلى الله أن يقرب عليّ البعد...<sup>(٤٤)</sup> ثلاثة ما أكملتها إلا ورأيت سرّ الله، ورأيت سيدي يسمي اسم الله داخل (كذا) في قصري. فانكشطت وانتشرت ظلمات فؤادي، وتمكن وثبت في بقعتي، وغرس فيها شجرة من مداده، فإذا بريح التوحيد عليها، تحرك جوارحي وتتكلم بلسان فصيح وتوحد الله جل جلاله كما سرّه يوحدّه. وملكتني «يا ذا القدرة»، وصرت إمام الأحبة واتخذوني إماماً وقدوة وأميناً على خزائن العلم والحكم، وعلى خزائن الجود والفضل والإحسان. وصرت في حضراتهم شاهداً وهانئاً وتمكّن في سرّي...<sup>(٤٥)</sup> تمكيناً ممتداً وحياتاً مسرمداً

(٤٣) يصبح اسم الذكر والمذكور اسماً واحداً. ولهذا يقول الغزواني إنه يذكر اسمه وهو يعني اسم «الله».

(٤٤) - بياض في الأصل.

(٤٥) بياض في الأصل.

(كذا).

(كذا) إليه العوالم، [٢١٠] وخليفة الله في ملكه، وأمين الله في أرضه، ومقدماً (كذا) على كل واقف وجالس، وماش وساكن ومتحرك، ومدينة الأنوار والأسرار، وعارفاً (كذا) بحقيقة سيدنا محمد المختار، ومحقق بجميع الطرق، ومحفظاً (كذا) على حقيقة السنّة، وعارفاً في منهاج الأئمة، وخليفة النبوة، وسيد الصوفية، ومحقق في حقيقة نبينا محمد . فقلت له: يا سيدي، يرحمك الله، في أي مدينة هو؟ فقال لي رضي الله عنه: ليس له مكان، ومسكنه بلاد الشام، وبيته بيت الحرام، ومدينته مسمية بخمسة أحرف وفي وسطها ألف مية (كذا<sup>٤٧</sup>)، فقلت له: يا سيدي، أخبرني في أي جهة؟ فقال لي رضي الله عنه: استقبل إلى القبلة، فاستقبلت إلى القبلة، فقال لي رضي الله عنه: رُدّ وجهك إلى يمينك، فرددت وجهي إلى يميني، فقال لي رضي الله عنه: انظر إلى ريح الشتاء، فنظرت إلى ريح الشتاء، فما المتحتُ طرفاً إلا ورأيت القطبَ الجليلَ المتفضلَ بالبهاء والكمال، نبينا محمد ، ومسحَ على وجهي، وأشرقت بصيرتي، ورأيت العوالم كلها. وكشف لي عن حقيقة السيد الفاضل

والغوثة استسلم وحلم، والقطب باح ولم يرجع، فإن رجع كان غوثاً، وإن صلح ولم يعد كان جرساً، وتستوي فيه كل آية حيث كان لها إلاماً قبلها وبعدها... القطب يسمع من جوارجه وله حكم على غيره في السير والمقيل، والغوث يقول ويسمع ويرد على عوالمه بما تلقاه بشيراً ونذيراً لبسط الرحمة وانتشار مادة الإحاطة، والجرس لا يقول ولا يسمع. اكتفى عند مشاهدة الوداع قبل شهادة الأصل من حيث كان حقاً لها...».

(٤٧) كل هذه العبارات مجازية لا علاقة لها بالمدلول الجغرافي؛ هي من عالم «الأنفس» لا من جهات «الآفاق».

(٤٨) هنا تبدأ المرحلة الثالثة من زكريات الغزواني. ونرى كيف يصف مغادرته لفاص وذهابه إلى مراکش على أثر تطورات نفسية لا علاقة لها بالحوادث التي ذكرها أصحاب التراجم الذين لا يرون ولا يروون إلا الظواهر. وقد عرفنا بالشيخ عبد العزيز التابع الحرار. وهو أحد «الرجال السبعة» المزار قبرهم في مراکش.

وكنت لا أملك أحوالي ولا نتيه إلا في كمال. وكان السيد المنتصف من نفسه يحدثني بحقيقة أحوال نبينا محمد وبأحوال الصحابة رضي الله عنهم وأحوال المتمولفين على محبة الله وأهل الخلافة والإنابة والقدوة وأهل الطريقة الجامعة وعلى المفرقين والمجتمعين، وعلى الواقفين والمهجورين والمرتدين والملفتين والمنكرين والمستكبرين والمستعملين. وكان ينصف الحق عن نفسه، ويحدثني رضي الله عنه في مقامات الأولياء وسلوكهم وأجذابهم وحقيقتهم ورفعتهم. وكان رضي الله عنه يقول: ما يصلح بك إلا سيدنا وقطب زماننا وغوثة هدايتنا وجرس<sup>(٤٦)</sup> سعادتنا، فهو محتوي (كذا) على كل مكان، ومفتقرين

(٤٦) كلمة «الجرس» يستعملها الغزواني غالباً. وهي تعني عنده مرتبة فوق مرتبة الغوث والقطب. وقد خصّ لذلك رسالة نستل منها العبارات التالية: «الجرس هو المستحق محلّ جميع الجمع... الجرس أمر مستقيم في أرضه، وزاهر بأنواره، في سموّ سمائه. الجرس جبروت أرواح الموجودات، ولا يصفه أحد بكل ما بدا لهم منه. الجرس سرّ الله حيث ما توجه له، وجلال الله حيث ما عظمه وراقبه. الجرس هو المحيط بوسع رحمته جمالاً بجمال شهود دوامه وحياته. الجرس مكمل بنعوت أوصاف الكمال، لا يعزب عنه بالله مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء... الجرس سطوة الحق، لا ضد يقابله، ولا علم يفقده، ولا حال يعتره في صحوه... الجرس شاهد قبله قبل وجوده، والغوث شاهد قبله بعد وجوده، والقطب شاهد قبله بعد تحرير امتحانه. القطب نجم ثاقب، والغوث قمر منير، والجرس شمس ممتدة. القطب ساحل يهدي على مل المراسي، والغوث يجوز إلى البر لمطلوب كل إفادة، والجرس لا حظّ له في ذلك، ولا همة تشاركهم وتساعدهم في كل ما يطلبونه وتتشوف إليه أذهانهم. الجرس منزّه في نفسه، ومعظم في روحانيته، وباق على حكم علمه، وعلى حياة ديمومة الله... الجرس سعادة الله في أرضه، وهديته في سمائه، ورضا الله في جبروته، وعز الله في علم مكنونه. خصّه الله بالمحامد التي تتصرف منه بكرة وعشياً، وخصه بتلبية الاسم المعظم لكل من دنا إليه. الجرس قدر وعفا،

المتفضل سيدي عبد العزيز الحرار<sup>(٤٨)</sup>. فاستأذنت السيد الكامل الأول، واجتهدت في عزمي، وما يليق بي في سيرتي، وأرسل رضي الله عنه معي من يؤنسني، واستودعنا في أمان الله، وصرت أنا وصاحبتي ثالث ثلاثة شهرين أو أكثر، فبلغنا مدينة مراكش عزها الله وحفظها من كل بلاء، وأوينا إلى السيد المخصوص المعروف بسيدي أبي العباس<sup>(٤٩)</sup> رضي الله عنه، وطلبنا عنده الدعاء. وبتنا في المدينة ليلة أو ليلتين، وخرجنا منها وأوينا إلى الشيخ المبارك، ولا كنتُ نحب أفضل منه ولا نرى أرفع منه ولا أوجه منه ولا أكمل منه ولا أجمل منه ولا نحب فيه كلاماً.

فلما بلغناه رضي الله عنه في طائفة من الشرفاء وجيش من أهل الصوفية، فقاموا وقام رضي الله عنه وتعنتت به، وصار رضي الله عنه يكمدني ويهمدني ويخمدني ويأخذ بيدي ويجلسني حوله. وفتح لنا رضي الله عنه الذكر وصرتُ غانياً وشاكراً. فلما سكت رضي الله عنه وحمد الله على سلامنا وبشرنا بالزيارة وأكرمنا بحسن الكرامة وسألنا رضي الله عنه [٢١١] على أحسن السنة، فقلنا له: يا سيدي، نحن مفترقون ومجموعون. ففهم ضي الله عنه وعرف كل واحد منا.

فقام رجل سأل الشيخ المبارك فقال له: يا سيدي من أي جهة أحببنا؟ فقال له رضي الله عنه: مسناوين ومشرفيين ومكيين ومدنيين

(٤٩) هو أبو العباس السبتي، أشهر «الرجال السبعة» المراكشيين، ومن بينهم الغزواني. توفي السبت سنة ١٢٠٤/٦٠١ (انظر نوح الطيب للمقرّي [تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ٧: ٢٦٦ - ٢٧٩،

(٥٠) إشارة إلى سورة الرعد ٢٩: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾. ولعل الأصح «طوى» إشارة إلى آية أخرى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوبَى﴾ (سورة طه: ١٢). والمسناوي: نسبة إلى قبيلة تامسني البربرية المنتشرة بين الرباط ومدينة الجديدة (مزاكثان). والمشرفي: نسبة إلى قبيلة أخرى معروفة تسكن في أنحاء تلمسان. أما «اليمينيين» فهي إشارة إلى «أصحاب اليمين».

ويمينيين وساكنين في أعلى «طوي»<sup>(٥٠)</sup>. فقال له الشيخ المبارك رضي الله عنه: تعلم يا مقصود هؤلاء السادات؟ فقال له: لا نعلم، فقال له السيد المفضّل رضي الله عنه: فهؤلاء السادات يبحثون على أصل أصول المحبة. ففرحت الأمم بنا، فقالوا لنا: يا ساداتنا ويا إخواننا ويا أحبّتنا، ما رأينا أحسن منكم ولا أفضل منكم. فقلنا لهم: بأي شيء؟ فقالوا رضي الله عنهم: جلسنا مع هذا الشيخ أياماً وسنين ولم نروا (كذا) هشاشته وقبوله وكرامته، فقلنا لهم: نحن غربا وقربا وصحبا (كذا).

فلما همد الحال فرأيت سر اسم السيد المبارك الرفيع المرّقع آخره في أوله، وأوله من آخري، فقلت: «الله أعظم وأكمل من كل شيء». وحبس رضي الله عنه بيدي وأدخلني إلى خلوته وإلى جنته وإلى ملكه وإلى حمامه وإلى قصوره وإلى حضرته وإلى أكوانه وإلى أغلاله وإلى أفقه وإلى حكمته وإلى سلطنته وإلى تصريفه وإلى آياته وإجلاله وإلى جماله وإلى كماله. فقال لي: أيها السيد، من أي إخواننا؟ فقلت له: يا سيدي، مسنويين، فقال رضي الله عنه: في أي بلدة كنت تقرأ؟ فقلت له: في مدينة فاس، فقال لي رضي الله عنه: نحب تجلس عندي وتخدمني وتصبر على تصريفي يميناً وشمالاً، لا نرجع نموت وتندم عليّ، فقلت له: يا سيدي سمعنا وأطعنا، فقال لي رضي الله عنه: يا بني، إنك كنت تحب إجازة الأحوال وحقيقة المقال؟ فقال رضي الله عنه: أنت مصفيا (كذا) ومشرفاً وخدم الصوفية.

فتعبدت له وبعثت نفسي في حق من ﴿لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (آل عمران: ٩)، وجلست عنده رضي الله عنه كما أحبّ ورضي، ووجدت عنده رضي الله عنه تسعاً وتسعين قطباً و٩٩ غوثاً و٩٩ جرساً و٩٩ [٢١٢] أفراداً (كذا) و٩٩ بديلاً و٩٩ نقيباً و٩٩

نجيباً و ٩٩ رائجاً و ٩٩ ماشياً و ٩٩ جالساً و ٩٩ خديماً و ٩٩ جمالاً و زمالاً و ٩٩ كاملين (كذا) في حقيقة الإيمان، وأما الباقيون فلا يعلمهم إلا الله؛ وأما من الجنّ فلا يعلمهم إلا الله؛ وأما الملائكة فلا يعلمهم إلا الله؛ وأما من خلق الله من العوالم فلا يعلمهم إلا الله. وكان رضي الله عنه تلاميذه في المشرق والمغرب وفي السواحل وفي الفيافي وفي القفار وفي كل بلد من بلاد الله ومن الهند ومن اليمن ومن كل مكان.

**القطعة الثانية** تحتوي على مختارات من نظرياته الفلسفية العرفانية في بعض الموضوعات الصوفية المعروفة، وفيها نرى كيف يجدد الغزواني الموضوع بتجديد لغته وصوره وأسلوب كتابته ذي البنية الثلاثية، فنفهم عندئذ أن سلسلة التصوف العالي لم تنقطع في المغرب، وأن الغزواني أخذ التصوف عن شيوخ لم يكتفوا بأن يحملوه الحطب للزاوية أو حراسة المواشي والبساتين، بل كانوا يفتحون له خزائن التراث الصوفي القديم كما أخذوه هم بدورهم شيخاً عن شيخ. وسنفتتح هذه المنتخبات بنص أول يحدثنا فيه الغزواني عن المشايخ كما يفهم طبيعتهم. وسنربط هذا النص بنص آخر عن الولاية لما بين الموضوعين من علاقة وثيقة، فيكون مثل المقدمة هذه:

١ - ومن كلامه أيضاً رضي الله عنه وأرضاه: (٥١) فإن

قال لكم قائل: فما حقيقة الولاية فأقول وبالله التوفيق: ظهور الولاية القائم بخوارق العادات (٥٢). فإن قيل لكم: فما أقسامها، وما تحقيق تصريف حكم أهلها؟ فالجواب: إن أقسامها ثلاثة: فأما القسم الأول من الولاية يعرفه كافة العامة، والثانية (كذا) يعرفه ذو الخصوص من الخاصة، والثالثة (كذا) يعرفه ذو العلم من خصوص الخاصة. وولاية خصوص الخاصة تنقسم على ثلاثة أقسام: الأولى ولاية إلهام، والثانية ولاية الفهم، والثالثة ولاية الكلام. وولاية أهل الكلام تنقسم على ثلاثة أقسام: ولاية نظر بلا فناء، وولاية سمع بلا تحديد، وولاية استجاب بلا عدم، والاستجاب ينقسم على ثلاثة أقسام: حكم، وأمر وتصريف. والتصريف ينقسم على ثلاثة أقسام: ظاهر، وباطن، وباطن الباطن. فالظاهر تجلية الأعيان على حكم العدل والفضل والامتنان، وأما باطن الباطن سر وقته الذات، الذب يخضع لمشاهدته كل آية محصورة مقهورة في علمه (٥٣). فهذه بداية من ولاية أهل التمكين الذين يكونون من غير علة ولا مستحيل. وولاية التمكين تنقسم على ثلاثة أقسام: تمكين وقت، وتمكين محدود، وتمكين منزه. والمنزه ينقسم على ثلاثة أقسام: قسم لا عدم قبل وجوده، ولا علة بعد كماله،

(٥٢) من المؤكد أن خوارق العادات والمعجزات المادية والمعنوية اكتسبت أهمية إيجابية لم تكن لها من قبل في التصوف المغربي المتأخر. فنحن نرى صوفياً كابن عباد الرندي (المتوفي سنة ٧٩٢/١٣٩٠) يحذر مريديه من التعلق بالمعجزات والكرامات، باطنية روحية كانت أو خارجية في العالم المحسوس. وهو يجعل الكرامات خلعاً للمبتدئين لا يحتاج إليها الراسخون في طريق التصوف. وهذه كانت فكرة الصوفية القدامى في العهد الكلاسيكي (انظر كتاب شرح الحكم العطائية ١: ٨٦ - ٨٨). (٥٣) في علمه: سقطت من ر.

ولا أين دونه مستنزلة، قائم بمحاسن الأوصاف السننية، وأزال لذة النعمة العلية؛ فهو الزتر المخصوص بتصريف وحدانيته، المنزه بتنزيهه المطلق، والمقدس بتقديسه المحقق: «كان الله ولا شيء معه. وهو الآن على ما عليه كان»<sup>(٥٤)</sup>. فهذه حقيقة رتبة السالكين التي كانت بدايتهم الذكر والفكر والغيبة والحضور والمراقبة والسر، والذين لا يفترون عن اسم جلال الله الذي لا إله إلا هو. فيه سلبت أنفسهم وتنورت به قلوبهم وجذبت به أرواحهم إلى محل الثريا والتقديس.

٢ - وأجاب رضي الله عنه لسائل سأله:

سألني بعض إخواني في كثرة الأشياخ وعددهم وقتلتهم وتفريدهم ووترهم، فقلت وبالله التوفيق: الأشياخ كثيرة. فقال: أدناهم وأعلاهم؟ فقلت وبالله التوفيق:

أدناهم ذو اليد المبسوطة، وأعلاهم ذو الوجه الذي لا يستتر، فشأن أحوال الوجه الذي لا يستتر ينقسم على ثلاثة أقسام: أمر، وعلم، وذات. فالأمر منه يظهر جوجه في وجوده<sup>(٥٥)</sup>، والعلم به يبين

(٥٤) بخص هذا الحديث الذي أورد القسم الأول منه البخاري وابن حنبل، انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٥: ١٧١ - ١٩٥.

(٥٥) كثيراً ما يضع الغزواني صلة بين مدلولي «الجود» و«الموجود» جاعلاً الواحد سبباً للآخر. ولا بد أنه ورث هذه الفكرة عن تلامذة أبي العباس السبتي الذي كان قد ركز طريقته الصوفية على «الصدقة والبذل والإيثار». ويقال إن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخزرجي ليعرف مذهب أبي العباس بمراكش. فلما نقل الخزرجي خبره إلى ابن رشد، قال له: «هذا رجل مذهب أن الوجود ينفعل بالجود، وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة» (نفح الطيب ٧: ٢٦٧، الحاشية رقم ١؛ وانظر أيضاً الإعلام للمراكشي ١: ٢٤٢). وقد شرح قول ابن رشد بعض الشيوخ إذ قالوا عن أبي العباس مخاطبين الله: «لما كان وجود بما في يده على خلقك، جعلت له الوجود يفعل فيه ما شاء... على حسب ما قدرته في أهلك» (الإعلام ١: ٢٤٠). أما الفيلسوف الذي يشير إليه ابن رشد فلا بد أنه أمذوقليس الذي نجد أثر آرائه في مدرسة المرية الصوفية، عند ابن مسرة والناقلين عنه، حتى ابن العريف وابن قسي وابن برجان.

وجوده في كل ما بان منه وإليه وفيه. والذات لا تتجلى لشيء يظهرها ويبينها كما كان في علم الله سبحانه: لا أول له «وهو الآن على ما عليه كان». الأشياء يعلمها تخصيصاً الوتر في حق فردانيته. وأما صاحب اليد المبسوطة ينقسم على ثلاثة أقسام: صاحب فرق قبل جمع، أو صاحب جمع بعد فرق، أو صاحب فرق لها على الحقيقة إلا يد جود الله سبحانه، وأما في حق الجسمانية تنقسم على ثلاثة أقسام: مقيدة، وموقوفة، ومطلقة، فأما اليد المقيدة فهي التي تحققت بواجب الشرع خيفةً ألا تفتقر، فتقيدت؛ وأما اليد الموقوفة فالغالب عليها الرجاء قبل الانتصار، والمسارة إلى الخيرات؛ وأما اليد المطلقة فكل ساحل يُنسب إليها: فهل على الحقيقة دائمة الوجود لكل موجود من الوجود الأبدي.

٣ - النص الثاني من المختارات التي نثبتها هنا في غاية الأهمية بالنسبة إلى معرفة ذهنية الغزواني الصوفية، لأنها تتطرق إلى موضوعات ظاهرها ينبئ بمدلول خرافي، فيعرفها الغزواني إلى مستوى عقلاي تتوسع فيه الآفاق، وتمتد له الأبعاد الصوفية، فيمتلك انتباه القارئ بغرابة أجوبته عن أسئلة تظهر لأول وهلة عامية خرافية: وسئل رضي الله عنه عن ثلاثة مسائل: عن الاسم المفرد، وعن النقطة التي تكلمت بها الأولياء، وكيف يزور القطب مكة وكيف تزوره مكة، وهل في الليل أو في النهار أو في كل ساعة، فأجاب<sup>(٥٦)</sup>:

(٥٦) - تركنا النص الذي يعطي جواب الغزواني عن «الاسم المفرد» لأن المؤلف اكتفى فيه بإعادة ما قاله الصوفية بهذا الخصوص.

(٥٧) في المخطوطتين تارة «تكلمت» وطوراً «تكلمت». أما النص فيصريح أن النقطة ليست موضوع كلام الصوفية بل عاملاً فعلاً يزطم ذات الأولياء ويمتزج بها: ويكملها.

وأما سؤالك سيدي عن النقطة التي تكلمت<sup>(٥٧)</sup> بها الأولياء، فهي سر من أسرار البديعة<sup>(٥٨)</sup>، يرى شكلها في أشكالهم. ليست نقطة على الحقيقة، ولكن نعوت كرامات: لا تتكيف ولا تنقسم ولا يجوز عليها ما يجوز على المستحيل من الفناء والعدم. فهي دائمة، تزطم<sup>(٥٩)</sup> ذات الأولياء وتمتدج بها. فكل ذات زطمتها مواهب النقطة فتصير كالزجاجة، ظاهرها حس وباطنها معانٍ وباطن باطنها تحقيق في كل التداني<sup>(٦٠)</sup>، فلذلك كان الإلهام نعوتها، والوحي لسان سلوانها، والمادة زطمة<sup>(٦١)</sup> كلامها، فإذا سمعت النقطة كلاماً في الزجاجة، انفلق البحر بالجود المودع<sup>(٦٢)</sup> فيها. فظهر وجود النقطة لكل من دنا واقترب، وشاهدها<sup>(٦٣)</sup> شهادة لا بها ولا منها ولا فيها، فسترها أهل الحق بذات لا تموت، وجعلوا على أعالي النقطة طلسم دائم (كذا) بدوام الحي من الحي<sup>(٦٤)</sup> الذي لا يموت.

وأما سؤالك سيدي كيف يزور القطب مكة وكيف تزوره مكة وهل في الليل أو في النهار أو في كل ساعة - نعم سيدي هذا سؤال مشكل غريب لمن لا يرى في نفسه معرفه ولا يرى كنز قدمه ولا ظهوره لكل الوجود. بل يا سيدي، القطب له مزية

على سائر أجناسه، وتنقسم مبادئه كما تنقسم جسمانيته: كان مبدأه قبض واصطلام وعليه طلسم، فهو من الذين يزورون مكة في ليل قبضهم. فبهجة مكة في قبض الليل أنس له، يحدو عليها بالتذلل والاحتقار وبالتواضع والافتقار: دليل في تلبيته، وحقير في تهويله، لا يرى أوله في آخره، ولا آخره في أوله. حتى إذا انشق فجره ورأى جوده موجوده في كل الوجود، أشرق نهاره وصارت مكة دوره وافترقت لها به<sup>(٦٥)</sup>، فحمد الله بتحميد الحامدين به، وأثنى على نفسه بنفسه. فحينئذ يزول طلسمه، وكل ما في وجوده شاهده<sup>(٦٦)</sup>، وأول ما يشاهده البقاع النفسية والأرواح الزكية، فالإسباق لمن ينعم الحق تخصيص لأهله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (الواقعة: ١٠). فمكة من أشرف<sup>(٦٧)</sup> البقاع. ومن كان له حق يقر بالحق على نفسه لأجل التخصيص، فتصير مكة طائعة لدعوة الحق لمن استوى على رتبة الحمد والتحميد. فتكون الهمة والنظرة الدائمة أسرع من اللحظات. والله على ذلك قدير<sup>(٦٨)</sup> من غير مسافة.

وأنشد رضي الله عنه:

**مجلس في العلى في كل مرتفع**

**وبيت حرم الله تطوف بدكانتني**

**عشرون وألفاً وكل ما أردت**

**وهمتي نافذة في إنيتي**

فهذا أقرب من اللحظات والساعات.

اعلم سيدي أن قطب الإشراق الذي تزوره مكة بالنهار مبادئه التوحيد، ومنتهاه التفريد، وثبرته التحميد والتمجيد، ويدل على فخره

(٥٨) ر: أسرار البديع.

(٥٩) يذكر المستشرق دوزي هذا الفعل بمعنى «داس الشيء برجله». ولكن في شرح بيت للغزواني حيث يقول:

**ولي عبد العزيز الحرير كنيه**

**يطأ زطمتي وإمام هدايتي**

نقرأ ما يلي «قوله «يطأ زطمتي»، والزطمة ها هنا ما تلقاه

السر من الله بغير تكيف» (غ: ١٤١)

(٦٠) ر: المتعبات

(٦١) ر: رحمذ (كذا).

(٦٢) ر: المودوع.

(٦٣) ر: وشاهد.

(٦٤) ر: ان الحي بين الحي.

(٦٥) ر: وافترقت الهابه.

(٦٦) ر: بشهادة.

(٦٧) ر: اشراف.

(٦٨) قدير: سقطت من غ.

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق: ١) ﴿الم﴾ (البقرة: ١)  
 و﴿الر﴾ (يوسف: ١) و﴿تَنْزِيلُ﴾ (الجاثية: ٢)  
 و﴿حم﴾ (غافر: ١) و﴿طسم﴾ (القصص: ١)  
 و﴿طه﴾ (طه: ١) ﴿كهيعص﴾ (مريم: ١) والسجدة:  
 ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾  
 (الرعد: ١٥).

اعلم سيدي أن مراتب القطب ثلاثة: فالذي يكون في الرتبة الأولى دالّ على مكة، والذي يكون في الرتبة الثانية وارث، فتكون مكة بيته، والذي يكون في الرتبة الثالثة فيكون خليفة في الأرض وخليفة في السموات وفي كل الأعلى والأدنى. فأين مكة وأين تطوف به؟ فيكون منزلها<sup>(٧٠)</sup> عن الأين والكيفية، أما سمعت «الأولياء عرائس»؟ فلا يرى فيهم بنو آدم إلا البشرية، وأما ما استترت فيه البشرية فلا يعلمه إلا الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وهذا ما يفهم.

### القطعة الأخيرة التي نثبتها هنا تحتوي

على ثلاث رسائل أرسلها الغزواني إلى مريديه أو معارفه، وأهمها الرسالة الأولى التي تكوّن كتيباً جمع فيه الغزواني على حسب قوله «جملاً» في تحقيق تخصيص التفريد وفي حكم التنزيه والتقدیس وأدب التهذيب»، والغريب هنا أسلوب الكتابة: فالغزواني لا ينطق باسمه بل يترك الحق تعالى يوجّه تعليمه إلى المرید على نمط النَّفْرِي في كتاب «المخاطبات».

الرسالة الأولى - ومما كتب به أيضاً لبعض

(٦٩) ر: بدكاني.

(٧٠) ر: منزه.

(٧١) ر: رحمه الله.

إخوانه رضي الله عنه وأرضاه<sup>(٧١)</sup> :

كافة الأحاب، سلام عليكم<sup>(٧٢)</sup> جملةً وتفصيلاً. فإنني وجهت إليكم ما يليق بنا وبكم. وكونوا عبيداً وارضوا بالأمر الذي فينا وفيكم. واعملوا على حالة الاستعداد وما يليق بحمد الله وشكره على تخصيص منة الأمداد، وما توفيقني إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. سادتنا وما خضع الخاضعون إلا بالذهاب إلى الله سبحانه وما بان لكم الآن وقبل الآن: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦). سادتنا إني قد جمعت لكم جملاً في تحقيق تخصيص التفريد وفي حكم التنزيه والتقدیس وأدب التهذيب، وهي عشرة أحكام:

### (١) الحكم الأول في الذهاب إلى الله سبحانه.

مريدي! اطوِ وجودك في وجودي. بإرادتي إليك أن أردت تنال أفضل الكرامات وحسن المناجاة. فما كل زاهب إليّ يلبيني، وما كل منادٍ يسمع خطاب أمانتي، وما كلّ حادث توجه إلينا وصار جمعه جمعنا، وما كل فرق تدلى بعلمنا عليه أ بهار خلعتنا.

### (٢) الثاني حكم الأزجار

مريدي! افنِ اسمك مع وجود مشاهدة اسمي. ولا تریّ دونك مولى. مريدي! أتذكرين وأنا حاضر وفيك بياني؟ أتذكرني على ما سبق لك ولم نرض لك دنو التداني؟ أتذكرني وأنا اللطيف بك في كل ما أردت من مراد؟ أتذكرني وأنت تدعي الألوهية مع قيام قدم ألوهيتي؟ أتذكرني في حقيقة وأنت لم تدرِ سوابق الأمور في حسن استوائتي؟

### (٣) حكم التهديد

مريدي! أتقول وأنا المستجيب<sup>(٧٣)</sup> لك؟ أتقول وأنا

(٧٢) سلام عليكم: سقطن من ر.

(٧٣) ر: استجيب.

العليم بك وبغيرك؟ أتقول وأنا الحكيم المتعالي على كل صورة أطويتهم (كذا) فيك؟ فوجدت طاعتك منك إليّ تستحق بها سرور البسط، ولا حظ لك في تصريف نعوت أو...<sup>(٧٤)</sup> مريدي! وكن قادماً وقدمني حيث نسيت في ضحوتك فيّ. فنتائج المنى تناجيك وتليبيك. فما من أحد أقرب منك إليّ.

#### (٤) حكم التحذير

مريدي! فأنا البصير لا ترى وجود شهودك يقابلني. فأنا الجميل خلعتني على كل وتر بفجر يفوه ويلبيني، فأنا العطوف على كل من وعدني واستقبلته ولم يرني، مريدي! أمتي تقول وأنا السميع قبل كل وجود لا في وجودك<sup>(٧٥)</sup>، أمتي تعانقني والدمم فيك يبين أبهار بيانك، أمتي تنشئ بدائع الحكمة ونور سر استواء سلطاني خلوتك، أمتي تفوه وأنت به عاجز وفي مقابلة حجبها وبعد ظهورنا لك خليفة فيك.

#### (٥) حكم المواجهة

مريدي! أتوجه قبل انبساط ظهور الأمر إليك، وما خفي عليك لم تنظره إلا بعد الاستخبار وامتحانك، أتوجه إليك وأنت لا شيء، كنت، وعلمك بلا أين، قديم في كل أزلي. أتوجه إليك وأنت حادث وجودي مطلق لم تره منك إلا ما مني إليك بعزتي وافتخاري.

#### (٦) حكم الاستعداد

مريدي! ادعني في كل ما أين، فهو مرادي وحسبي، ولا تخش من كل زادي. ادهوني وإنا لا نراعي فضيلتكم وعزّ وقاري. فكل منهل فهو ودادي، ادعوني فما تعرفتم به منّا. فمني الهداية والإرشاد، ولا تستقل نيل الفيض، فما من

واحد<sup>(٧٦)</sup> غيري جواد، ادعوني بما عندكم لي، ولا أحد يقابلني ويوجد بجودي. ادعوني فالآن على ما كنت عليه: واحد صمد فرد أبدي.

#### (٧) حكم البشارة

مريدي! ومني نارت أفلاك الأقطار سراً وجهراً، ومني عجائب الأمداد تبين في سر إسراء كل آية، ومني صار الوجود يسبح بافتخار امتداد ذاتي، ومني بان الحق واندفع الباطل وصار الجاهل غفوراً برحمتي. ومني رفض العوالم والأفعال والصفات لكل من خشعت أصواته ودنا فلا تسمع إلا همساً<sup>(٧٧)</sup> في تحقيق مناجاتي.

#### (٨) حكم الملوك على الملك

مريدي! وبني شاهدوا<sup>(٧٨)</sup> آداب الفراسة والاستواء على كل من قال «أنا». وبني شاهدوا أدب التنزيل في كل مُحكم ولم يقم بهم إلا بياننا. وبني صار<sup>(٧٩)</sup> استواءهم من غير صورة وتحققوا بكل شيء ولم يجدوا إلا كمالنا وتحقيق جمعنا، وبني لعبوا من غير أدب حتى صار العجز ينادي ويقول لهم: لا تخشوا فتنتنا، وبني تعجبوا أن كل قاطع لا يخلو من كل مملكة ولو بين أذان التكبير وتعظيم سر اسمنا.

مريدي! فأنا الملبي لهم قبل كل ما شاهدوه ولم يرضوا سوى سريرة سرت في كل حكم بأحكامنا. فأنا المتجلي<sup>(٨٠)</sup> لهم بشهود تحقيق ذاتنا وأثنت عليهم بالتحية وعليهم إكرام سلامنا.

(٧٦) ر: أحد. (٧٧) - إشارة إلى الآية: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (طه: ١٠٨). ويذكر المؤرخون أن الشيخ الغزواني كان له ولع بتلاوة سورة طه.

(٧٨) ر: يشاهدوا.

(٧٩) زاد في غ: «استواء» بعد «صار».

(٨٠) غ: الملتجي.

(٧٤) بياض في الأصلين.

(٧٥) لا: سقطت من غ.

## (٩) حكم الملك على الملوك

مريدي! فلا أرى أحد عاجزاً ومني إليكم نفحة الوصول لوصولكم، ولا نرى أحداً منكم يشاركني وعز وجودي وغناي يباشركم<sup>(٨١)</sup>، فكلما تصونه مني فهو علو ورفعتكم، وكل جهة وجهتم بها إليّ حقيرة. ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

(١٠) حكم الجمع بين الملك والملوك سرّاً وعلانية مريدي! فمني إليهم حقيقة أوليتي واجتماعنا. ومني كل فرق أوجدته وأظهرته فيهم بكل ظهورنا. ومني انتشار الأمر حتى عاد الفرق في كل أوليتنا وأخريتنا، ومني جاد وجودهم ودامت حياتهم بحياتنا، ومني أوضح الحق وبيّن كل صراط مستقيم فيهم إلينا، ومني استجابات دعوتهم في كل قبض وبسط ولم يرضوا<sup>(٨٢)</sup> بالمحامد ثناء لثنائنا. ومني استجاب لهم كل ملتجأ وتعين كل سجد لذاتهم بذاتنا. ومني لم تنقطع سبحات الأمر في كل زاكر بذكرنا ﴿قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١) طوعاً لطاعتنا، ومني فاضت أعين المحبين وتبهجت أسرارهم ونادتهم باسمنا.

مريدي! ومني باح كل علم في علم بمن انتشرت أخباره، وقال عبد منيب بواسطة الوسيلة إلينا. ومني له بسط الطاعة واجتباء الأجابة لكل من

(٨١) ر: وعناي.

(٨٢) غ: يروا

يُنظر ترجمته في سلوة الأنفاس ٣: ٢٨١ - 283، وجذوة الاقتباس 1: 322 - 323، والإجازة (ترجمة ابن أبي شنب)؛ 242، وشجرة النور الزكية: 281، رقم 1061. «كان رحمه الله قد قرأ بتونس ومصر وغيرهما وامتحن بالأسر ففداه سلطان فاس إذ ذاك... وذلك في حدود السبعة والأربعين وتسعمائة... توفي بفاس سنة 996 / 1587». ويقول صاحب شجرة النور: «كان سوق المعقول كاسداً بفاس فضلاً عن سائر أقطاب المغرب. فننق (أبو الفضل) في زمانه ما كان كاسداً من سوق الأصليين المنطق والبيان وسائر العلوم، لأن أهل المغرب كانوا لا يعتنون بما عدا القرآن والفقه والنحو وما يوصل إلى الرئاسة الدنياوية».

رمى بالسوى وقال وإن من دنا (كذا). ومني له آية كريمة في كل علم وعزنا. ومني سر التخصيص أسوة حسنة لكل من نارت به أفلاكنا، ومني توجه حسن الأفعال و الصفات لكل من قال ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ١ - ٢) وحيي بكلامنا، ومني ظهر لهم اسم التعظيم والجلالة وقالوا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الحشر: ٢٢ - ٢٤).

٢ - الرسالة الثانية موجهة إلى «فقيه أنكر على الفقراء»، فهي إذن دفاع عن التصوف، وفيه من قوة الفكر وعنف الهجوم غير المباشر ما يدل على السطوة أو «السلطنة» التي كان يشعر بها الغزواني. الرسالة موجهة إلى «فقيه»، ولذا فقد استعمل فيها الغزواني نوعاً من الكتابة تدخل في الكلمات والعبارات والجمل بلبلية داخلية تجعل الفقيه يشك في معرفته باللغة العربية لا بل يشك بكل لغة كأداة تعبير من شخص إلى آخر. والفقيه اسمه أبو عبد الله التونسي، وكان من تلامذة الشيخ ناصر الدين محمد اللقاني، ومن الممكن أنه راسل الغزواني من القاهرة كما راسله اللقاني. وكان التونسي - واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل خروف الأنصاري التونسي<sup>(٨٣)</sup> -

(٨٣) يُنظر ترجمته في سلوة الأنفاس ٣: ٢٨١ - 283، وجذوة الاقتباس 1: 322 - 323، والإجازة (ترجمة ابن أبي شنب)؛ 242، وشجرة النور الزكية: 281، رقم 1061. «كان رحمه الله قد قرأ بتونس ومصر وغيرهما وامتحن بالأسر ففداه سلطان فاس إذ ذاك... وذلك في حدود السبعة والأربعين وتسعمائة... توفي بفاس سنة 996 / 1587». ويقول صاحب شجرة النور: «كان سوق المعقول كاسداً بفاس فضلاً عن سائر أقطاب المغرب. فننق (أبو الفضل) في زمانه ما كان كاسداً من سوق الأصليين المنطق والبيان وسائر العلوم، لأن أهل المغرب كانوا لا يعتنون بما عدا القرآن والفقه والنحو وما يوصل إلى الرئاسة الدنياوية».

منفرداً «بالمنطق والكلام وأصول الفقه والمعاني والبيان»، ولكن الأسئلة التي يلقيها عليه الغزواني تظهر عجز هذه العلوم إزاء من لا يتكلم لغتها: وما كتب به رضي الله عنه لفقيه أنكر على الفقراء:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ (الكهف: ١ - ٢) وصلّى على سيدنا محمد إمامنا وحكيم الحكماء وعلى آله ومن تصدر<sup>(٨٤)</sup> بأسوته رحمة ورحماً.

أما بعد أيها السيد الأشنى، من قام<sup>(٨٥)</sup> خليفة في العلو والأدنى، واستقرت شواهد شهوده في قول قيلولية «أنا»، المتجرد عن شفع<sup>(٨٦)</sup> الكسب واستجاب اقتحام حميته، فلا وتر لدونه دنا، الحافظ في كل سبيل سلوك المتقين بال جذب لأهل أربابه، الموجود<sup>(٨٧)</sup> بلا اثنائية في بيان كمال تنزيهه، المجيب لكل سائل عن حقيقة أهل الوفاء، السيد إمام الهمم في مدارك ذرية نسبة الصفاء الحقيقي يقيناً لمن عفا وأصلح، أبو عبد الله التونسي.

قد بلغنا كتابك وأبديت فيه هوى سبيلك وما أنفت إليه كل راعونية (كذا) تطلق على ضدها حيث انتشر شؤمها ولم يزرها زاجر البر. سيدي! ما هذا الذي تخلقت به أو صاف كمالك؟ لأنك لم تحسن مكنون زواهر الكتاب، ولم تصدق لذة ذوي أهل القرب، ولم يكن في تجريدك<sup>(٨٨)</sup> نصيحة بين أنوار سلسلة المساكين، وسرور جذبة سلوان أهل الحب. ولم يؤول بهم سلطانك في كل زمان

(٨٤) غ: تصدق.

(٨٥) غ: أرقام.

(٨٦) ر: كسب.

(٨٧) ر: الموحد.

(٨٨) ر: تجردك.

وفيه نفحات حقيقة تصريحه الأقطاب. سيدي! قدمت مستعمل<sup>(٨٩)</sup> كتابك القبائح، ولم تصدر بتصديق الصائح، وما لمحت به رؤية فؤادك شهوداً من ذلك لوائح. سيدي! نريد الإنصاف بعدل بيننا، وإلا أنت مُدّع لذات نبينا محمد، ويكون الإنصاف منك قولاً وفعللاً وحالاً وجمالاً وجمالاً وكمالاً، سيدي! ما نظرت لحقيقة الهداية والإرشاد، وما هو سر الأمداد الذي ينطوي فيه علم الظاهر والباطن بلا اتحاد، وما هو السبيل والقصد الذي يهدي إلى النور، والذي تفرعت منه الأنوار، وأحي به الجسد<sup>(٩٠)</sup> وأطلق به العدد؟ ومن هنا تتفرع حياة قلوب المريدين ولا يفتروا عن ذكر الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وفيها<sup>(٩١)</sup> الكفاية والنجاة والفوز المطلق سراً وعلانية.

سيدي! وأهل الذكرها ينقسمون على خمسة أقسام: لغويون وحسيون ومعنويون وحقيقيون ومكتفيون.

أما اللغويون فهم العامة في ذكرها؛ وأما الحسيون فهم أهل سلوك التكليف المقيد؛ وأما المعنويون فهم أهل المراقبة والشهود لطريقة الجذب بالفهم المطلق لا يجوز إشكاله؛ وأما الحقيقيون فهم أهل الجذب الرباني الذي لا يتقيّد<sup>(٩٢)</sup> لطلسمه إلا من اجتباه وهده إلى الصراط المستقيم؛ وأما المكتفيون فقد اكتفوا عن علو الدرجات وتنزيل سلوان المقامات، فهم أهل حقيقة. سلبوا الصحو، وتنزهوا عن كل لوائح المحو، ولم يبالوا بكل ما توجهوا إليه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾

(٨٩) ر: مبستعمل (كذا).

(٩٠) ر: الجد.

(٩١) ر: ففيها.

(٩٢) غ: تقييد..

(الأحزاب: ٣٨). سيدي! فهم القائلون بحقيقة الحمد والشكر والثناء والتفضيل والتخصيص الذي لا نهاية لقسمته وتصريفه.

سيدي! ففي أي<sup>(٩٣)</sup> محل أنت فيه؟ وكم لك من علوم منطوية مطوية في ظاهره؟ وكم لك من علوم تبيّن لك إشكال ما يصدر من باطنك أو يتشوف<sup>(٩٤)</sup> إليه؟ أو ساكن غير متحرك، أو باق على أصله، ولم يعلم كيف هو إله؟ وكم لك من علوم في باطن باطنك مستغن عن كل وارد ولا يكشف عنها إلا كاشف الرموز، ومن ناله فإن وعلمه مكنون فذّ؟ سيدي! وكم لم من علوم في مشاهدة حياتك، ودوام بقائك لسرّ سرّك، إلى نهاية لم يجد سرّك لسرّ الأسرار مشاهدة ولا بقاء ولا إدراك لكل أين وإن زهر شعاع استتاره محلّ إيمانه: سلام مطلق من غير حلول وكل ما يتعلق بتقديس الأسماء الأزلية لذاتها ﴿السَّلَامُ الْمُؤْمَنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر: ٢٣).

سيدي! فإن كنت عالماً بكل ما [ذكرت]<sup>(٩٥)</sup>، فأنت القائم بشريعة مولانا محمد المصطفى، وأنت أحقّ بالقضية<sup>(٩٦)</sup> وغيرهما، والفتوى التي لا حظ بها في سبب الحفظ، ولا تجد إلهاماً يلهمك لبدائع حكمة السرّ الخفيّ في السنّة المحمدية تصريفاً يميناً وشمالاً وعلى كل جهة تتوجه إليها. ولم تعجز في كل تفصيل بيانها ظاهراً وباطناً وسراً<sup>(٩٧)</sup> وسر السر وما يفنى عنه وما يبقى به وما يتصف بغير رقّ وما يتخلق من غير عبودية<sup>(٩٨)</sup> وما يتأيد من

غير أنانية وما يتأدب لغير<sup>(٩٩)</sup> شبهة ولا قبلة ولا حظ لرعونة تشابه أحكام الربوبية. سيدي! <sup>(١٠٠)</sup> الكفاية من علم الظاهر أدب، وعن علم الباطن عبودة، وعن علم باطن الباطن استسلام.

سيدي! ما هو السلب عن الكفاية وما هو الاسم القائم بكل الحوادث ولم يظهر بيان تكييفه لأحد جملة وتفصيلاً. سيدي! لقد أقما حجتك على الغير ولم تخاطب<sup>(١٠١)</sup> بها نفسك، ولا نظرت أي كائن أنت فيه وهل أنت في عالم الجسم الأدنى أو في عالم علم البدني (كذا)<sup>(١٠٢)</sup> الأدنى؟ سيدي! ما كان مجزوباً من جذبة بلا أين؟ سيدي! وهل أنت فرق وفي حقيقة النسبة مشترك، أو فرق يتفرق للجمع؟ أو فرق قائم وللجمع فيه حقيقة؟ وحقيقة رؤية تنزيل ذلك ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١٠٧ و ١٠٨). والتركيب ينقسم على خمسين أصلاً<sup>(١٠٣)</sup> وواحد. وما بقي من الأقسام لم يعلمه إلا قليل ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن: ٢٧).

سيدي! فكل ما نسبت لجملة الفقراء من غير مزية التفضيل، واستحقاق نسبة التخصيص، وعلو نوازل علم الفهم في حضرة التقديس والأنس، فهو حقّ. لأن عامة الفقراء جهلوا علم أهل الباطن واستدرجوا في كل ما شاهدتموه فيهم، وجهلوا (كذا) أهل علم الباطن معرفة مراد أهل باطن الباطن، ولم يقوموا بصواب الأدب، وغلبت عليهم أنوار فروع الوجد، فقام كل واحد منهم خطيباً بما يحرك نسيم نفحات ما تعبدت به نفسه، وما تسلّت<sup>(١٠٤)</sup> به روحه، وما أيّن سرّ الحكم في سابق

(٩٩) ر: يعادب (كذا) بغير.

(١٠٠) سيدي: سقطت من غ.

(١٠١) ر: تخالط.

(١٠٢) اللداني: كذا في ر، ولعله «اللدني».

(١٠٣) ر غ: أصول.

(١٠٤) ر: نسبت

(٩٣) أي: سقطت من غ.

(٩٤) يتشوف: سقطت من غ.

(٩٥) ذكرت: سقطت من المخطوطتين.

(٩٦) ر: بالقاضية.

(٩٧) وسراً: سقطت من ر.

(٩٨) ر: عبودة.

سره، فلا سلامة لأحد منهم إلا من رمى بالسوى ولم تخدعه المطامع.

سيدي! وقولوا للناس حسناً وكلهم أكلوا لحوم بعضهم بعضاً، كما جرى حكم الاعتراف بعن في اعتراف فراسة أهل السنة لقدوة سيد المرسلين حين أمرهم بالوضوء وقال لهم: «أكلتم لحوم بعضكم بعضاً»، ما زال الباطل يعلي جهله ويدفعه الحق: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، سيدي! فالعبد ولو كان حراً من كل رقّ بحرية تفضيل الإطلاق، فهو عبد لكل ما سيلتجئ إليه في كل نفس.

٣ - الرسالة الثالثة موجهة إلى «فقير تعرض للشيخوخة». لذا فلجهة الغزواني فيها لهجة النصيحة الأخوية، ولكنها نصيحة ليس فيها للعواطف محل، بل فيها من العنف في العبارات ما يدل على قوة شخصية الغزواني: تلك القوة التي يرمز إليها الخبر المذكور في ترجمته عن علاقته بأحد زملائه: «إن سيدي رحال الكوش - فيما يقال - ظهر بمراكش زهوراً يضاهي ظهور سيدي عبد الله الغزواني. فقال له سيدي عبد الله: إما أن تتركها لي أو أتركها لم، وأنا حنشان في غار فلا يجتمعان!»<sup>(١٠٦)</sup>.

[٩٠] ومما كتب به رضي الله عنه لفقير تعرض للشيخوخة<sup>(١٠٧)</sup>:

الحمد لله على ما كان وما يكون، وهو بكل شيء

عليم، سلام من خديم الفقراء عبد الله بن محمد الغزواني على أخيها ولحمة بصائرنا المقرّ بالبراهين الواثقة، المتشوف إلى الحضرة الوافية. قد وجهت لنا كتاباً ورأينا حروفاً منه، فبان لنا معنى الكل، ومهلنا على الجواب حتى ألهمنا الله إليه.

أخيها: جهلت أمور السؤال وتحقيق الكمال، ولم يكن لم علم في الأول، ولا اطلعت على قلبك خمسة أفجار فيما يليق في نفسك لمعرفة<sup>(١٠٨)</sup> الله المنزهة العالية المقدسة البائنة في كل شهودها: الأول فجر الهداية، والثاني فجر الاقتداء، والثالث فجر الإمداد، والرابع فجر الإشهاد، والخامس فجر الملك الودود.

أما فجر الهداية، السمع والطاعة والاستجابة لله ورسوله؛ وأما فجر الاقتداء، التسليم لأمر واجب على كل من تحقق وندب إليه بأمر واضح: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)؛ وأما فجر الإمداد، التحلي والتسلي على حكم سابق الأزل ومجريها: ﴿فَدَجَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ١٠٠). وأما فجر الإشهاد، لا خيانة ولا شك: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨)؛ وأما فجر الملك الودود، تحكّم حكم أحكام الألوهية في محكم البشرية ظاهراً وباطناً: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ (القصص: ٦١).

واعلم يا أخي أنّ كل ما ذكر لك أخونا لم تفهم منه شيئاً، ونور بصيرتك مقيد، وحكم ظاهره معيد، وكيف تفجر لك الأنوار السننية من غير تودد؟ فبذلك خفيت عليك شواهد الحكم، واستحرمت نفسك بالملام واللوم، وقول أخيها لك «أنت تحت

(١٠٨) غ: لا معرفة.

(١٠٥) يُنظر ترجمته في دوحة الناشر: ١٠١؛ قال «الرجل الأسود المستجاب رحال الكوش نزيل أنماي، من حوز مراكش. كان من الأبدال مستجاب الدعاء... كان يعيش على نبات البرية ويدخر زريعة الخردل لقوته. تعود ذلك من سياحته». توفي سنة ١٥٤٣/٩٥٠.

(١٠٦) يُنظر الإعلام ٨: ٢٥٤.

(١٠٧) هذا النص ورد في غ فقط (٩٠ - ٩٢).

يدي»، فواجب عليه ألا يخاطب بذلك، لأم محلّ ذلك محلّ الأنانية. فليس يدعى مع الله أحد. لكنه أخونا، يحمل إما أن يكون في محل التوجه والإقبال، وإما أن يكون زاهداً في كل حال: إن كان في محل التوجه والإقبال، فجائز له الكلام والتحية وإفشاء السلام، وإن كان في محل زهد الحال، حيي حياة طيبة ولا يقول إلا ﴿سَلَامٌ﴾ (الذاريات: ٢٥). فهذا ما يليق بمن استشعر جنده، ولا يرى ما في باطنه ما يوحد.

واعلم أنّ لنا عليم حقوقاً وعلى غيرك ولم تؤدوا شيئاً منها. أولها لنا عليك تقديم شيخنا ووسيلتنا إلى الله ورفعتنا بين يدي كل من قرب ودنا، والثاني المشاورة، والثالث أدب الخصوص، ولم تنافسنا إلا بحظ هوى النفوس، واعلم أن رفع

يديك للتخصيص لم تكن فيك حقيقة الإنصاف والتخليص، ولا علم لك نفسياً من حقيقة الأقطاب والأجراس. وزعمت أن التصوف بكثرة الجمع؛ وإن التصوف حقيقة تسلية علم مكنون ينبئ عليه في جسد جشوع، وافترقت خلوة الجلد والاجتهاد، وغابت عليك أسلاب الإمداد.

واعلم يا أخي إنما السر قديم، والرب حكيم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩). ومن أخطأ طريقة الأدب لم يجر على قلبه ولسانه تحكم سلوان الصوار. ففجري على الأقطاب كطور سيناء ويوم ﴿الْأَسْتُ﴾ (الأعراف: ١٧٢) يشهده أروحتي.